قصة صاحب يس



فضيلة الشيخ الدكتور
سعيد عبد العظيم
غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

دار الإيمان
إسكندرية



ربنا تقبل منا
إنك أنت السميع العليم



رقم الإيداع
١٣٨٥٥ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولي
977-331-141-4

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٢).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (سورة النساء: ١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ

لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب: ٧٠-٧١).

أما بعـــد...

فإن أصــدق الحديث كتاب الله، وأحـسن الهدى هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد، فقصــة صاحب يس توضح حقيقــة الإيمان وقيمة اليقين وكيف تكون الاستــجابة لداعي الحق وفعل الله بأوليائه وتصور الصراع بين الحق والباطل والإيمان والكفر.

إن صاحب يــس وهو الذي تعرضت الســورة لقصــته تنويهًا بذكــره وإعلاء لشأنه... لم يذكر القــرآن اسمه ولا لونــه ولا طولــه ولا ســنــه ولا بلــده... وكل ذلــك طواه القــرآن؛ لأنه لا فائدة تــرجى من البحث فــيــه؛ وأسمــاء الأشخاص وتحديد الزمــان وتعيين المكان ليست هي الهدف من قصــص القرآن وإنما الهــدف إظهار العــلاقة بين الخــير والشــر وعاقبــة كل منهمــا، الأمر الذي يــدعو العبــاد إلى الإيمان وفعل الخيرات ويخوفهم من الكفر وفعل المنكرات.

إن قصة صاحب يس دعوة للاستقامة على منهج الله ومتابعة طريق الأنبياء والمرسلين. لقد وقعت أحداثها في زمن مضى؛ وتكررت هنا وهناك؛ إنها قصة الإيمان على مر العصور وكر الدهور؛ ولا يمنع أن تكون أنت صاحبها الآن؛ وممن يشارك في أحداثها؛ وإلا فالزمان والمكان والأشخاص ليسوا غرضًا ولا هدفًا من وراء ذكر القصة؛ وإنما الغرض والهدف؛ هو إقامة واجب العبودية في كل عصر ووقت؛ ودعوة الخلائق لإسلام الوجه لله جلَّ وعلا؛ وإبلاغ الحق للخلق ليحيا مَن حييَّ عن بينة ويهلك من هلك أيضًا عن بينة.

إنها تذكرة سيقت مساق القصة في بساطة أسلوب وسلاسة عرض؛ تصل إلى شغاف القلوب من أيسر وأقصر طريق لتحقق هدفها وتبلغ مرامها بإذن الله؛ فلا يبقى بعد ذلك الأمر إلا التأسي وعلو الهمة، وتجديد ما اندرس من الدين عملاً بالإسلام وللإسلام، حتى لو فعلوا بك ما فعلوا بصاحب يس، فذلك هو الفضل العظيم.



والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.



• القصة كما ذكرت في القرآن:

قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ (سورة يس: ٢٠-٢٩).

• أقوال المفسرين:

قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ (سورة يس: ٢٠): هو حبيب بن مري وكان نجارًا وقيل إسكافيًا؛ وقيل قصارًا، وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام.

وهو ممن آمن بالنبي ﷺ وبينهما ستمائة سنة كما

آمن به تُبعٌ الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما؛ ولم يؤمن بنبي أحدٌ إلا بعد ظهوره.

قال وهب: وكان حبيب مجذومًا، ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة؛ وكان يعكف علي عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضُرَّه فما استجابوا له؛ فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال: إن هذا لعجب لي، أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عني فلم تستطع، فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة؟ قالوا: نعم ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئًا ولا تضر فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به كأن لم يكن به بأس، فحينئذ أقبل على التكسب فإذا أمسى تصدق بكسبه، فأطعم عياله نصفًا وتصدق بنصف؛ فلما همَّ قومه بقتل الرسل جاءهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة يس: ٢٠). الآية.

وقال قتادة: كان يعبد الله في غار، فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعى، فقال للمرسلين: أتطلبون على ما جئتم به آجر؟ قالوا: لا ما أجرنا إلا على الله.

قال أبو العالية: فاعتقد صدقهم وآمن بهم وأقبل على قومه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ (سورة يس: ٢٠-٢١) أي: لو كانوا متهمين لطلبوا منكم المال. ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (سورة يس: ٢١): فاهتدوا بهم.

﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ (سورة يس: ٢٢) قال قتادة: قال له قومه أنت على دينهم؟ فقال: ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ (سورة يس: ٢٢): أي خلقني.

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة يس: ٢٢): وهذا احتجاج منه عليهم. وأضاف الفطرة إلى نفسه لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر؛ والبعث إليهم: لأن ذلك وعيد يقتضي الزجر، فكأن إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكرًا؛ وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثرًا.

﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ (سورة يس: ٢٣): يعني أصنامًا.

﴿ إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ ﴾ (سورة يس: ٢٣) يعني ما أصابه من السقم. ﴿ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴾ (سورة يس: ٢٣) يخلصوني مما أنا فيه من البلاء يعني إن فعلت



ذلك. ﴿ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة يس: ٢٤) أي خسران ظاهر ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ (سورة يس: ٢٥).

قال ابن مسعود: خاطب الرسل بأنه مؤمن بالله ربهم. ومعنى ﴿ فَاسْمَعُونِ ﴾ (سورة يس: ٢٥): أي فاشهدوا أي كونوا شهودي بالإيمان. وقال كعب ووهب: إنما قال ذلك لقومه إني آمنت بربكم الذي كفرتم به.

وقيل: إنه لما قال لقومه: ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا من لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾، رفعوه إلى الملك وقالوا: قد تبعت عدونا، فطول معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل؛ إلى أن قال: ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾، فوثبوا عليه فقتلوه.

قال ابن مسعود: وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُهُ (أمعاؤه) من دبره وألقي في بئر وهي الرَّس وهم أصحاب الرس. وفي رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة. وقال السدي: رموه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي، حتى قتلوه.

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ (سورة يس: ٢٦) وذلك لما قُتل.

قال قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق؛ أراد

قوله تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٩).

﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (سورة يس: ٢٦-٢٧) تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته، وليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله.

قال ابن عباس: نصح قومه حيًا وميتًا. فلما قُتل حبيب غضب الله له وعجل النقمة على قومه فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنۢ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ (سورة يس: ٢٨): أي ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبي بعد قتله.

قال قتادة ومجاهد والحسن: أي لم أحتج في هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر بل أهلكتهم بصيحة واحدة؛ قال معناه ابن مسعود وغيره ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ تصغير لأمرهم؛ أي أهلكناهم بصيحة واحدة من بعد ذلك الرجل.

★ التناسب بين الآيات:

سورة يس مكية بالإجماع. وهي ثلاث وثمانون آية، إلا أن فرقة قالت: أن قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ (سورة يس:١٢)، نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ وقد تناولت السورة مواضيع أساسية ثلاثة وهي الإيمان بالبعث والنشور، وقصة أهل القرية، والأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي وصدق رسالة محمد ﷺ ثم تحدثت عن كفار قريش الذين تمادوا في الغي والضلال وكذبوا سيد الرسل صلوات الله وسلامه عليه؛ فحق عليهم عذاب الله وانتقامه.

ثم ساقت قصة أهل القرية «أنطاكية» الذين كذبوا الرسل؛ لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، على طريقة القرآن في استخدام القصص للعظة والاعتبار.

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا

الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُون ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (سورة يس: ١٣-١٩).

ثم تعرضت السورة لموقف الداعية المؤمن (حبيب النجار ـ صاحب يس) الذي نصح قومه فقتلوه، فأدخله الله الجنة ولم يمهل المجرمين بل أخذهم بصيحة الهلاك والدمار.

وتحدثت السورة بعد ذلك عن دلائل الوحدانية والقدرة؛ وانتقلت للحديث عن القيامة وأهوالها لتختم بالحديث عن الموضوع الأساسي وهو موضوع:

★ البعث والجزاء:

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ :

وأنت لو تأملت لوجدت تناسبًا بين الآيات التي تعرضت لقصة صاحب يس والآيات قبلها وبعدها.. فقبلها

تحدثت الآيات عن قصة المرسلين مع أصحاب القرية وكيف واجهوا دعوة الهداية والخير بتشاؤم وتكذيب؛ ثم قتل المرسلين الثلاثة ولكن الدعوة لم تنته، إذ جاء صاحب يس متابعًا للمرسلين وداعيًا أهل القرية للدخول في دين رب العالمين؛ ولذلك تواصلت الآيات وتناسبت. فلما أخذوا وقتلوا، أهلكهم ربنا جلَّ وعلا بالصيحة وأعقب ربنا القصة بقوله: ﴿ **يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ (سورة يس: ٣٠).

فالتكذيب هو هو مع المرسلين وأبنائهم، ويا لها من حسرة وخيبة على هؤلاء المستهزئين الذين بدلوا الإيمان بالكفر والسعادة بالشقاوة، وأوردوا أنفسهم موارد الهلكة قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ** ﴾ (سورة يس: ٣١).

وقد تناسبت القصة أيضًا مع بداية السورة ففيها تعريض بكفار قريش حيث كذبوا سيد المرسلين ولم يتعظ هؤلاء المشركون بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل،

فدعوة المرسلين وصاحب يس لم تختلف عن دعوة الرسول ﷺ.

كما ارتبطت القصة بخاتمة السورة ارتباطًا واضحًا، فالخلق خلقه والعبد عبده وليس شيء يخرج عن سلطانه وقهره، خلق الخلق وأحصى كل شيء عددًا وهو المبدئ المعيد قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة يس: ٨١)، فكيف نستنكف عن عبادته ونكذب رسله وأولياءه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة يس: ٨٢)، له الخلق والأمر سبحانه. أحيا صاحب يس حياة الكرامة بعد موته، وأهلك أعداءه بصيحة لم تُشفع بثانية، قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة يس: ٨٣)، فاحذروا سخطه وأليم عقابه وأقيموا حياتكم وفق منهجه سبحانه.

والسورة سُميت «سورة يس» لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بهذين الحرفين «الياء والسين» للتنبيه على

إعجاز القرآن؛ وقد ارتبطت قصة الداعية المؤمن باسم السورة فأطلق عليه اسم «صاحب يس».

★ هل القصة والسورة بضاعة للموتى؟!!!

لقد صار كثير ممن ينتسب لدين الله وكأن القرآن يناديهم من مكان بعيد، من يوم بدر وأحد.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٤٤).

«سورة يس» لا يقرأ بها إلا على الموتى وفي المقابر، والقرآن لا يُحرص عليه إلا في الأربعين والسنوية!! وعمل الختمة للميت، والمصاحف على كثرتها لتزيين المنازل والمكاتب والسيارات، إلى غير ذلك من صور الإهمال والهجران لكتاب الله ولآياته البينات.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (سورة الفرقان: ٣٠).

أين الحرص على إقامة حياتنا الخاصة والعامة وفق

شرع الله؟ أين تطبيق هذه الآيات في السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق، والبيت والسوق والحرب والسلم والبيع والشراء... آية واحدة تكفي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؛ سورة واحدة كسورة يس أو غيرها فيها من العظات والعبر والدعوة لتوحيد الله جلَّ وعلا؛ ما يجعلنا نرتدع وننيب لخالق الأرض والسموات. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (سورة القمر: ١٧).

طالع قوله سبحانه في بداية سورة يس: ﴿ يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (سورة يس: ١-٦)، فهل انتفعنا بهذه النذارة؟

ثم بعد آيات تقرأ قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ (سورة يس: ١١)، فهل انتفعنا بالبشارة؟

ثم يأتي قوله جلَّ وعلا: ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (سورة يس: ٧٠)، أي لينذر بهذا القرآن من كان

حي القلب مستنير البصيرة وهم المؤمنون لأنهم المنتفعون به ﴿ ويَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾، أي وتجب كلمة العذاب على الكافرين لأنهم كالأموات لا يعقلون ما يُخاطبون به، أين ذلك كله ممن لا يعرف عن سورة يس أو (عدية يس) إلا أنها يُستخرج بها الأشياء المسروقة!!

ما أعظم الفرق بين أمسنا ويومنا، وما أشد غربة أمتنا وبُعْد المسلمين عن دينهم وكتاب ربهم.

★ تمييز الغث من السمين فيما ورد بشأن سورة يس:

حديث: «من دخل المقابر فقرأ سورة (يس) خفف الله عنهم وكان لهم بعدد من فيها حسنات» قال عنه الألباني: لا أصل له في شيء من كتب السنة.

والسيوطي لما أورده في شرح الصدور لم يزد في تخريجه على قوله: أخرجه عبد العزيز صاحب الخلال بسنده عن أنس! وعد قراءة (يس) على المقابر من جملة البدع. كما ذكر الشيخ الألباني في كتابه (أحكام الجنائز ـ ص١٨): «أن قراءة سورة يس عند المحتضر لم يصح فيه

حديث». وقد نقل كثير من المفسرين كالقرطبي وابن كثير والشوكاني. . . أحاديث كثيرة في فضائل هذه السورة؛ ومن ذلك:

ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ (يس) في ليلة أصبح مغفوراً له، ومن قرأ (حم) التي يُذكر فيها الدخان أصبح مغفوراً له**»، قال ابن كثير: إسناده جيد وحديث: «**اقرءوها على موتاكم**» يعني يس (رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي في «اليوم والليلة»، وابن ماجة). .

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ: ولهذا قال بعض العلماء من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله، وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة وليسهل عليه خروج الروح والله تعالى أعلم.

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان قال: كان المشيخة يقولون إذا قرئت يعني يس عند الميت خفف الله عنه بها.

وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «**لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي**» (يعني يس) أهـ.

وقد ساق الترمذي حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لكل شيء قلبًا وقلب القرآن يس؛ ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشرة مرات**»، ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن، وهارون أبو محمد شيخ مجهول.

وفي الباب عن أبي بكر الصديق ﷺ ولا يصح لضعف إسناده؛ وأخرج الطبراني وابن مردويه قال السيوطي بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من داوم على قراءة يس كل ليلة ثم مات مات شهيدًا**».

★ القصة في القرآن:

قصص القرآن هي الآيات البينات التي صورت الوقائع وسجلت الأحداث وظروفها وملابساتها ونزل فيها وحي السماء

ببيان أمر الله وحكمه وهداية وشفاءً وإعجازًا وتثبيتًا وتبشيرًا وإنذارًا وعقيدة وشريعة وتفصيلاً لكل شيء وفي ذلك.

يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(سورة يوسف: ١٠٩-١١١).

وقد حكى لنا القرآن قصصًا كثيرًا منه ما كانت أحداثه على عهد النبي ﷺ كقصة بدر وأحد والأحزاب وحديث الإفك وقصة المجادلة؛ ومنه ما حدث في الأمم السابقة؛ فقد ذكر لنا القرآن قصص الأنبياء وما كان من شأنهم مع أممهم وتتبع آثار كل قوم وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه، ومنه ما هو مفرد لم يتكرر كقصة أصحاب الكهف

وصاحب يس وقصة أصحاب الجنة ووصايا لقمان لابنه؛ أما القصص المكرر فهو مستفيض؛ فقدوردت قصة إبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وموسى وهارون وعيسى في أكثر من موضع من كتاب الله، ثم القصص القرآني بنوعيه الإسلامي وقصص الأولين مستمر بطول القرآن وعرضه، من أوائل البقرة إلى آخر ورقة في المصحف الشريف.

ولو تتبعنا ما صح ورجح من أسباب النزول لوجدنا صبغة القصص غالبة وراء أكثر الآيات؛ وكأن معظم القرآن قصص؛ إما بالنص أو بسبب النزول؛ فإذا كان لابد من إبلاغ الحق للخلق؛ فإن الأسلوب القصصي من أنفع الأساليب؛ والقصص القرآني . . . ومنه قصة صاحب يس تصل إلى شغاف القلوب من أيسر طريق.

★ القصص القرآني كله حق لا خيال فيه:

القصص مأخوذ من القص، وهو تتبع الأثر قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (سورة الكهف: ٦٤) أي رجعا يقصان الأثر الذي جاءا به.

وقال سبحانه على لسان أم موسى: ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِه قُصِّيه ﴾ (سورة القصص: ١١)، أي تتبعي أثره حتى تنظري من أخذه. والقصص كذلك الأخبار المتتابعة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هذا لهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ (سورة آل عمران: ٦٢).

وقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ (سورة يوسف: ١١١)، والقصة: الأمر والخبر، والشأن والحال.

وقصص القرآن كله حق لا خيال فيه، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ (سورة الكهف: ١٣). وقال سبحانه: ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ من نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ (سورة القصص: ٣).

ويقول سبحانه: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ (سورة الإسراء: ١٠٥). وهذا مما يفترق به القصص القرآني عن هذا القصص الذي يؤلفه الناس من بنات عقولهم ويتخيلون وقائعه وأحداثه، ولسنا في حاجة إلى القصص الخيالي المكذب قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (سورة المائدة: ٣).

وقد كان علي بن أبي طالب ﵁ يأمر بإخراج القُصَّاص من المساجد، وهم الذين كانوا يروون الأقاصيص المكذوبة لترغيب الناس أو لترهيبهم.

ولا يجوز تربية أبناء المسلمين على الخرافات والشعوذة والخزعبلات الموجودة في القصص الخيالي مثل ميكي ماوس وبطوط... فهذا القصص من شأنه أن ينحرف بعقائد الصغار ويعودهم على الكذب والخيالية، والبعض يبرر لنفسه ولأولاده بزعم الترويح والتسلية ولو تأمل لوجد أن الترويح لا يجوز أن يتم بمحرم ولا بما يستدخل الشر والفساد ويطمس الفطر، وقد كان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًا وصدقًا. لقد أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم.

ومن الملاحظ أن الدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل ولا تستطيع الناشئة أن تتابعها وتستوعب عناصرها إلا بصعوبة شديدة وإلى أمد قصير؛ ولذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعًا وأكثر فائدة؛ والطفل بصفة خاصة

يميل إلى سماع الحكاية ويصغى إلى رواية القصة، بل وتستوعب ذاكرته ما يُحكى له، فيحاكيه. ولذلك لا ينبغي أن يغيب عنا هذا المسلك في التربية والتعليم ومن طالع صفحة من كتاب الله فسيجد كيف اختلطت الرغبة بالرهبة والوعد بالوعيد والقصة بالموعظة، والأحكام الشرعية في ثنايا ذلك كله.

★ أهداف القصص القرآني:

القصص القرآني له أهداف كبار، كل هدف منها يلح في التكرار والمزيد من التكرار، فليس هو حكايات للتسلية، وليس مغامرات مثيرة لسد الفراغ في النفس أو قتل فراغ الزمن.

• ومن بين هذه الأهداف:

١ ـ إظهار صدق النبي ﷺ في دعوته الأمم بما أخبر به عن الأحوال الماضية عبر القرون والأجيال وقيام التحدي بذلك؛ وهذا في حد ذاته إعجاز، فالنبي ﷺ كان أميًا وقد جاء بكتاب فيه نبأ من قبلنا وخبر من بعدنا وحكم ما



بيننا. قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (سورة العنكبوت:٤٨). ويقول جلَّ وعلا: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة هود:٤٩).

والآيات في هذا المعنى كثيرة تحمل في طياتها معنى التسلية للنبي ﷺ وللعصبة المؤمنة في دعوة لاقوا فيها التكذيب والتعذيب ومن أجلها هاجروا وفي سبيلها حاربوا وجاهدوا، فاحتاج الأمر لتثبيت متكرر، ولذلك تكرر بعض القصص بما يتكافأ مع حجم الرسالة وعظم الأمانة ومشقة الدعوة وقسوة العناد ومرارة الجهاد، في رحلة طويلة امتدت ثلاثًا وعشرين سنة من حياة رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (سورة الحج: ٤٠)، وفي بيان هذا الهدف يقول ربنا جلَّ وعلا: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة هود: ١٢٠).

٢ ـ زجر الكفار وإنذارهم وتخويفهم وهو كثير في

كتاب الله تعالى ومن ذلك ما جاء في سورة العنكبوت؛ فبعد أن قص علينا سبحانه قصصها قال تعالى: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٠)، وقوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (سورة فصلت: ١٣)، وقوله: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ (سورة القمر: ٤٣).

٣ ـ بيان أسس الدعوة، وأن الدين واحد، هو الإسلام وإنما تعددت الشرائع وشريعة الإسلام حاكمة ومهيمنة على سائر الشرائع. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء: ٢٥).

وما من نبي إلا وقال لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (سورة الأعراف: ٦٥) وسار الأتباع على خطي الأنبياء دون تبديل أو تغيير.

٤ ـ إعجاز في إيجاز، فمن بين صور الإعجاز التي وردت في كتاب الله تعالى الإعجاز اللغوي والبياني.

وتكرار القصة في القرآن يدل على هذا المعنى بكل وضوح كما في قصة موسى وفرعون؛ فهي في كل موضع تأتي بأسلوب يتمايز عن الآخر؛ ولا يمل الإنسان من تكرارها، وهي قصة تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل وقد يُذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام وتبرز معان أخرى في سائر المقامات؛ حسب اختلاف الأحوال بالإضافة إلى أن إيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي.

ومن المعلوم أن القرآن نزل منجمًا مفرقًا وعلى مكث، وبين القصة والقصة زمن؛ وكل هذا تصديق وتأكيد للإعجاز وأنه من عند الله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (سورة هود: ١).

وقال تعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ (سورة النساء: ٨٢).

٥ ـ الحث على مكارم الأخلاق كما في قصة موسى مع شعيب وابنته، عندما ورد ماء مدين. فإذا لم نجد أدبًا

ولا تربية بعد ذلك دل هذا على أن هؤلاء قد اتخذوا القرآن مهجوراً، وأنهم لم ينتفعوا بهدي القرآن ولا قصصه.

إن هذه الأهداف التي ذكرناها تتجلى بوضوح من خلال التعرف على قصة صاحب يس.

★ قواعد هامة في عرض الحوادث التاريخية:

لما كان التاريخ أداة من أدوات الدعوة إلى الله وتحقيق عبوديته، وكان عبارة عن حلقات متصلة قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (سورة فاطر:٢٤)، لم ينفصل مثل هذا الفصل المريب إلى تاريخ قديم ووسيط وحديث، إذ أن البشرية ابتدأت بمرتبة هي من أعلى مراتب الهداية، فالبداية كانت بنبي الله آدم، وكان نبيًا مكلمًا.

ولما كانت الغاية من خلق الخلق إقامة واجب العبودية قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (سورة الذاريات:٥٦-٥٨)، كان لابد من ربط الماضي بالحاضر، والسنن الشرعية بالسنن الكونية، والأرض



بالسماء والدنيا بالآخرة... وبالتالي فدراسة التاريخ ترتبط ارتباطًا وثيقًا بعقيدة المسلم، ومن هنا يتوجب عليه ملاحظة هذه القواعد في الأسلوب والعرض:

١ - العقيدة الإسلامية هي الأصل والأساس الذي يرتكز عليه الحدث:

إن التركيز على معنى العقيدة لا يعني الإخلال بالوقائع التاريخية، كما لا يعني أيضًا أننا سنقتحم أمرًا لا وجود له فالملك له مالك، والخلق له خالق، والعبد عبده والأمر أمره، والحلال ما أحل، والحرام ما حرم، والدين ما شرع، والكون من حولنا يسير وفق نظام محكم دقيق. والناظر في أسلوب القرآن وطريقته في عرضه لتاريخ الأنبياء وأتباعهم سيجد تركيزًا على الوحدانية وإخلاص العبودية لله، ونبذ الشرك والمشركين وبيان تناقضهم، ويجعل القصص ونتائجه مرتبطًا بذلك.

إن المتابع لأحداث التاريخ سيجد أن السعادة والتمكين والأمن والأمان والنصر والرخاء مرتبط بطاعة الله

والاستقامة على أمره، وأن التعاسة والشقاء والظلم والجور في الانحراف عن منهجه سبحانه وشرعه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (سورة سبأ: ١٥-١٧).

نظرة سريعة على دعوة صاحب يس والمرسلين من قبله ستجد تركيزاً على جانب العقيدة؛ وكما يقرر العلماء؛ فإن تقديم الأهم على المهم أمر واجب في العلم والعمل والدعوة إلى الله. وأعظم ما اهتم به العباد هو قضية العقيدة. فالتوحيد أولاً لو كانوا يعلمون.

٢- التركيز في العرض على الأهداف والغايات:

ينبغي أن لا تشغلنا الدقائق التفصيلية في حوادث التاريخ عن العبرة من الحدث والرؤية الشاملة له والمسلم له هدف محدد في هذه الحياة وغاية يسعى إليها؛ ويعلم أنه



مأخوذ عليه في سمعه وبصره وسائر جوارحه ولذلك لا يسمح لنفسه أن يبدد وقته فيما لا طائل تحته؛ كما لا يوافق غيره على أن يعبث بعمره فيما لا فائدة فيه؛ إلا أن يكون البحث في التفصيلات متعلق به مقصد شرعي فلا بأس حينئذ، ومن أدل ما يلفت الأنظار لهذا المعنى قوله تعالى:

﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا** ﴾ (سورة الكهف: ٢٢).

يستوي في أخذ العبرة أن يكون عددهم ثلاثة أو خمسة أو أقل أو أكثر، وسنهم ٢٠ أو ٢٥ سنة أو أكثر أو أقل، ولون كلبهم أسود أو أحمر أو غير ذلك وكذلك الأمر في قصة صاحب يس؛ فالعبرة حاصلة سواء كان طويلاً أو قصيرًا، أبيضًا أو أسودًا، بدينًا أو نحيفًا، كبيرًا أو صغيرًا، شريفًا أو وضيعًا، وجد هنا أو هناك، فالذي يجب على المسلم هو التركيز على الأهداف والغايات والتذكير بها في كل مناسبة.

٣ ـ أن يكون العرض موحيًا بتحبيب الخير وتبغيض الشر:

المسلم صاحب رسالة وميزانه هو شرع الله، والشرع له حكمه على كل قول أو فعل وهو شرع شامل لكل زمان ومكان أو لكل ناحية من نواحي الحياة.

وعرض الأحداث التاريخية بأمانة والفحص والتدقيق والنقد والتثبت لا يتعارض بحال مع الحكم على الأشياء بشرع الله، لا بما تعارف عليه الناس أو قررته هيئة أو استحسنه طائفة من المؤرخين، فالحق حق مهما كان فاعله والباطل باطل مهما كان قائله، ولنحذر في ذلك التفسير المادي للتاريخ، هذا التفسير الذي يفصل الدنيا عن قضية الإيمان. فالصراع فيه لطلب الدنيا والبطولة عنده لتحقيق الوطنية والقومية...

إن تحبيب الناس في الخير وتبغيض الشر لهم من خلال العرض التاريخي يُعد من أعظم غايات دراسة التاريخ وثمراته، وهذا المعنى واضح كل الوضوح في قصة صاحب يس.



٤ ـ إبراز دور الأنبياء وأتباعهم في تاريخ البشرية:

الإسلام هو الدين الذي ارتضاه ربنا للعالمين قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (سورة آل عمران: ١٩)، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٨٥). وهذا الدين هو دين آدم ونوح وإبراهيم موسى وعيسى ورسول الله ﷺ، لا يقبل ربنا جلَّ وعلا من مخلوق سواه، ثم الأنبياء وأتباعهم في هذه الحياة يمثلون خط الاستقامة، وتقف بإزائه الجاهليات على تعدد أنواعها واختلاف عصورها.

والتاريخ البشري يمثل صراعًا بين الحق والباطل، والغلبة في النهاية والعاقبة إنما هي لحزب الرحمن في مواجهة حزب الشيطان قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة القصص: ٨٣).

لقد قتل المرسلون وهم يبلغون أمر الله لأصحاب القرية، ثم جاء صاحب يس يكرر لهم نفس الدعوة فقتلوه هو الآخر فماذا كانت عاقبة هؤلاء وأولئك؟

قال تعالى عن صاحب يس: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ (سورة يس:٢٦). وقال عن أصحاب القرية: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (سورة يس:٢٩).

إن لدعوة المرسلين وأتباعهم أعظم الأثر في تاريخ البشرية، إن كلمة الحق لا تضيع هباءً ولابد أن تترك أثرًا، فلكل مقدمة نتيجة ولكل عقيدة تأثير. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٤).

إن دعاة الحق يريدون تطبيق شرع الله وإسلام الوجه لخالق الأرض والسموات وأعداؤهم يبغونها عوجا.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة التوبة: ٣٢).

٥- تحري استعمال المصطلحات الإسلامية:

كل لفظ له مدلوله وكل مصطلح له معناه كالديمقراطية والاشتراكية والسلام العالمي والحرية والإخاء واليمين واليسار

والتاريخ الحديث والشرق الأوسط... والمعنى الذي اشتهر لكلمة أو تعارف الناس عليه ليس بالحتم أن يكون موافقًا لشرع الله، فإذا علمنا أن كل كلمة لها وقع وتأثير واستحضرنا صورة الصراع بين الحق والباطل ومحاولة كل صاحب عقيدة أن يروج لعقيدته، وأن يستخدم أساليبه ومفاهيمه ويبث مصطلحاته وأفكاره رجاء أن تسود وتعلو ويدين الناس بها، علمنا أهمية تحري استعمال المصطلحات الإسلامية وخصوصًا في وقت ازداد فيه ضحايا الفكر العلماني الوافد، واشتدت فيه وطأة التغريب.

إن للمسلم لسانه الذي يصوغ به الحقائق التاريخية، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (سورة ق:١٨)، وهذه الصياغة الإيمانية تفترق كثيرًا عن الصياغة الكفرية، وحتى لو قلنا: إن العلم والحقائق عالمية فاللسان الذي تصاغ به ليس كذلك، وعلينا أن نضبط كل لفظ نقوله أو نسمعه بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

٦ - الابتعاد عن أسلوب التعميم قبل حصول الاستقراء:

عرض الحدث التاريخي يستلزم الدقة وأن تكون

العبارات محـددة الدلالة واضحة المعنى وأن لا نطلق حكمًا عـامًا علـى أهل بلد أو على أهل زمـان أو على جنس من الأجناس، أو تنفي حـدوث واقـعة مـعـينة، قبل حـدوث الاستقراء التام؛ فصـاحب يس كان رجل مغموراً لا يلتفت لمثله؛ لو وُجد في عصرنا وخصوصًا مع الانبهار والإعجاب بالدنيا وزخرفها والانخداع بالتـيسيرات المادية وغلبة الباطل والضلال وفقدان الموازين الشـرعية. ولكن من ينفي وجود صاحب يـس وأن قتله ترتب عليـه إهلاك أصحاب الـقرية لتمردهم وكفرهم وشدة بغيهم وعدم ارتداعهم؟

إن كثرة الباطل لم تنفِ وجود الخير والصلاح وإن كان المرسلون وصـاحب يس قـد قـتلوا وتم إهلاك أصـحـاب القريـة؛ أي أن الجميع قـد انتقلوا إلى ربهـم إلا أن الفارق كبـير بين الفريقين ويا بُعد مـا بين العاقبـتين فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ (سورة القلم: ٣٥-٣٦).

★ صفات الداعية المؤمن عند صاحب يس:

إن الدعوة النـاجحة لابد أن ترتكز علـى أسس وتقوم

على دعائم لابد من توافرها وقد ذكر ربنا جلَّ وعلا دعوة صاحب يس في معرض الثناء والمدح؛ فعلى كل من أراد حسن التأسي والاقتداء أن ينظر بعين الاعتبار لهذه الصفات التي تحلى بها في دعوته.

• ومن أهم هذه الصفات:

١ ـ الفهم الدقيق:

الفهم فضل من الله ومرتبة من مراتب الهداية. قال تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٩).

لقد فهم صاحب يس غايته في الحياة، وإن له رسالة لابد من تأديتها؛ فتجافى عن دار الغرور وتعلق بالآخرة وأتى من أقصى المدينة يسعى لمواصلة مسيرة الدعوة إلى الله، فما ينبغي لهذا الخير أن يتوقف؛ وبلغ قومه هذه الدعوة الإيمانية فما ترك هدي إلا وحثهم عليه؛ ولا شبهة تتعلق بها نفوسهم إلا وحرص على إزالتها؛ ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة يس: ٢٠ ـ ٢٢).

إن حسن موازنته وتقديره؛ وقيامه بطاعة الوقت وثباته على الأمر حتى لقي ربه، يدل على فهم دقيق؛ إذ من المعلوم أن القلوب تضطرب وقت الشدة، وتطيش العقول وقت الفتنة؛ ولا يمسك الإيمان في القلب إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده؛ وحتى يكون الإنسان على بصيرة من أمره وأمر الناس فهو يحتاج لتوفيق وفضل ونور وهداية حتى يُلهم رشده ويسلك صراطًا مستقيمًا؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحُسن أولئك رفيقًا.

إن الفهم الدقيق لابد فيه من علم بمواضع الأقدام، والنفس والأعداء والأصدقاء؛ علم بشرع الله وبالحلال والحرام وبما يجوز وما لا يجوز وبما يسوغ فيه الاجتهاد وما لا يسوغ، فعلى المسلم أن يستزيد من هذا العلم الشرعي النافع ليعرف موضوع دعوته وليكون فيها على بصيرة وبينة فلا يأمر إلا بالحق ولا ينهى إلا عن باطل ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سورة طه: ١١٤).

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (سورة المجادلة: ١١)، وعليه أن يتزود لرحيله ويستشعر غربته في الدنيا ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ (سورة البقرة: ١٩٧)، وأن يكون دائمًا بين الخوف والرجاء؛ فإذا تمكنت هذه المعاني من النفوس هيجتها لطلب الآخرة فتنشط الجوارح في العبادة، والجهاد في سبيل الله والدعوة إليه؛ حتى لو تطلب الأمر بذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس.

٢ـ الصدق:

الصدق خُلق فاضل تمتنع به النفس من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، به تبين معادن الرجال وخصوصًا وقت الشدة، وهو من الدرجات العلى، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (سورة الأحزاب: ٢٣).

وقال النبي ﷺ: **«إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله**

صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا»

(أخرجه الشيخان).

إن صاحب يس كان صادقًا مع ربه، صادقًا مع المرسلين، صادقًا مع نفسه، وصادقًا أيضًا مع أصحاب القرية الكافرين، لقد عَلمَ أن الإيمان بالله يترتب عليه تبعات، فحمل الرسالة وأدى الأمانة، صدق الله فصدقه، وتابع المرسلين ليس فقط حال حياتهم بل أيضًا بعد وفاتهم، ووفاء العهد من الدين، وهو أمارة صدق عظيمة وتكاد تلمح من قصة صاحب يس صدق النية والإرادة، فالحركات والسكنات لله جلَّ وعلا، وصدق العزم في أخذه الأمر بقوة وبلا ضعف وتردد ولذلك أثنى عليه سبحانه هذا الثناء العطر.

إن المعاني الطيبة عندما تستقر بالنفس وتتمكن من القلب، تأبى إلا أن تولد مثل هذا الصدق في الأقوال والأفعال، لقد أتى من أقصى المدينة يسعى، فلم يضن

بالخطوات ولم يتكاسل أو يتباطأ في دعوة الخلق وطلب الآخرة، وكأنه كان يستعجل نهايته المحتومة ويقابل الموت غير هياب، ما أعظم الشبه بين صدق صاحب يس وصدق صحابة رسول الله ﷺ.

روى أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع، قال: فشهد أحدًا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: إلى أين؟ فقال: واها لريح الجنة إني أجد ريحها دون أحد، فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة فقالت أخته: ما عرفت أخي إلا ببنانه فنزلت تلك الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (سورة الأحزاب: ٢٣). (والحديث رواه البخاري وغيره).

٣ـ أمارات الإخلاص في دعوته:

إخلاص العبد لا يعلمه إلا الله، والكل مطالب

بمجاهدة نفسه حتى يكون عمله لله، فجهاده وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر... ينبغي أن تكون ابتغاء مرضات الله، لا عملاً لنفسه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (سورة البينة: ٥)، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

(سورة الكهف: ١١٠).

وقد حكى النبي ﷺ لأمته قصة الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، ومنهم الذي قاتل حتى قتل، وكيف يؤتى به ويعرفه الله نعمه فيعرفها ويسأل ما فعلت فيها؟ فيقول: يا رب قاتلت في سبيلك حتى قتلت؛ فيقال له: كذبت ولكن ليقال عنك شهيد وقد قيل ويؤمر ويسحب على وجهه في النار؛ وكذلك العالم والمرائي، وقد كان من دعاء رسول الله ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه**».

إن الإخلاص عزيز وهو فقد رؤية الإخلاص، ومن أحس في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى

إخلاص، فلابد من الاستعانة بالله، وأن يكون عملك هنا ونظرك في السماء، ولتعلم أن ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما، والنفس في سيرها إلى الله لا تتخلص من كيد الشيطان إلا إذا أخلصت، ولذلك كان بعض الصالحين يقول لنفسه: يا نفس أخلصي تتخلصي، وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (سورة الحجر: ٤٢).

والإخلاص وإن كان أمرًا بين العبد وربه، إلا أن له أمارات وعلامات، فما أسر عبد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾

(سورة محمد: ٣٠).

والأمارات كثيرة في دعوة صاحب يس، ذلك الرجل المغمور الذي رفعه ربنا مكانًا عليًا، وأدخله الجنة بمنه وكرمه، لقد أثنى عليه سبحانه في مجيئه لأصحاب القرية ودعوته لهم، وذكر عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴾ (سورة يس: ٢٢-٢٣).

وقبلها ذكر لهؤلاء القوم دعوة المرسلين، وكيف أنها كانت دعوة لوجه الله ﴿ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (سورة يس: ٢١) إن العلم والإخلاص واليقين رحم موصولة بين المؤمنين في كل عصر ووقت.

حاصر «مسلمة» حصنًا فندب الناس إلى نقب منه فما دخله أحد، فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ففتحه الله عليهم فنادى «مسلمة»: أين صاحب النقب؟ فما جاء أحد، فنادى إني قد أمرت الإذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلا جاء، فجاء رجل فقال: استأذن لي على الأمير فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه، فأتى «مسلمة» فأخبره عنه، فأذن له فقال: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثًا:

- ألا تسودوا اسمه في صحيفة الخليفة.
- ولا تأمروا له بشيء.
- ولا تسألوه ممن هو.

قال: فذاك له، قال: أنا هو. فكان «مسلمة» لا يصلي بعدها صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب.

ما أعظم التعامل مع الله، وإخلاص الأمر له، ونفض اليدين ممن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فالنظر للمخلوق والتطلع له ومراءاته محبط للعمل مسخط لله جلَّ وعلا. وما أقرب الشبه بين صاحب يس وأصحاب الكهف ومؤمن آل فرعونِ وصاحب النقب، فاحرص على التجرد لله في قولك وفعلك، وأحسن التأسي، وسل الله من فضله فمن سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه كما صح بذلك الخبر عن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه. ففي الحديث: **«إن بالمدينة أقوامًا ما قطعنا واديًا ولا وطئنا موطئًا يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟!، قال: «حبسهم العذر»** (والحديث رواه مسلم وغيره).

٤ـ متابعته:

الدعوة الناجحة المباركة، هي التي يستقيم فيها الأتباع

على هدى الأنبياء والمرسلين فمن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم، قال تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ (سورة الأنعام: ٩٠)، وقال سبحانه: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ (سورة النساء: ٦٥)، وقال سبحانه: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴾ (سورة الأحزاب: ٣٦).

ولا ينال العبد درجة المحبة إلا بالاتباع الصادق، قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ (سورة آل عمران: ٣١) قال الحسن: ادعى قوم محبة الله فابتلاهم الله بهذه الآية.

فالإيمان ليس بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل وأن قومًا غرتهم أماني المغفرة، ذهبوا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

أتى رجل للإمام مالك يقول: يا إمام إني أريد أن أحرم فمن أين أحرم؟ فقال له: من حيث أحرم رسول الله ﷺ، من ذي الحليفة، فقال الرجل: فإني أريد أن أحرم من أبعد منه، فقال الإمام: لا تفعل، قال الرجل: ولم؟ قال الإمام: أخاف عليك الفتنة، فقال الرجل: وأي فتنة في ازدياد الخير، قال له الإمام: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (سورة النور: ٦٣).

وقد نزلت سورة الحجرات تحض على المكارم ورعاية حقوق الأدب، فلا يجوز أن نتقدم بين يدي الله ورسوله بقول أو فعل، ولا أن نرفع أصواتنا فوق صوت رسول الله ﷺ حال حياته، ولا على سنته بعد مماته، كما لا يحل أن نجهر له بالقول كجهر بعضنا لبعض... والنصوص الشرعية في هذا المعنى كثيرة وكلها تحض على الاتباع وتزجر وتنهي عن الابتداع، وعلى هذه النصوص تربى صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان، فكان عمر رضي الله عنه يقول: «**كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس خيراً**»، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، عليكم**

بالأمر العتيق»، وعلى هذا المنهج تربى التابعون ومن تبعهم بإحسان، فكان الشافعي رحمه الله يقول من استحسن فقد شرع. ولذلك كان لسان حال ومقال المسلمين في كل عصر ووقت يردد، إنما أنا متبع ولست بمبتدع، وهذا شأن صاحب يس، فمجيئه وإسراعه وحرصه على إبلاغ الحق للخلق وقوله: ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة يس: ٢٠-٢٢) لآيات تدل على متابعة صادقة لا ابتداع فيها.

٥ـ الرحمة والرفق والشفقة:

ينبغي على المسلم في دعوته إلى الله أن يكون رحيمًا بالخلق، رفيقًا بالمدعوين، شغوفًا عليهم، حريصًا كل الحرص على هدايتهم، مع معرفته أن قلبه وقلوبهم بيد الله، وقد بلغ من حرص صاحب يس على نجاة أصحاب القرية أن نصحهم حيًا وميتًا.

﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (سورة يس: ٢٦-٢٧).

ومحبة الخير للناس تجري من المؤمن مجرى الدم من العروق تجعله يبذل حياته ويحمل روحه على كفه، ويترك راحة بدنه، بل قد يرتحل تاركًا المال، والأهل، والوطن في سبيل نجاته، ونجاة الناس، فهل هناك شفقة، ورحمة أعظم من دعوة تقرب من الله، وتدل على طريق الله، ويتخلص بها العبد من الكفر، والباطل والضلال، وينجو بها من عذاب الله، ثم هو وجه كلمات هادية حانية بلا سب ولا شتم ولا ضرب... بل كان رفيقًا حليمًا، وما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه، وربنا جلَّ وعلا رفيق، ويحب الرفق في الأمر كله، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على غيره.

للأسف لقد تغيرت المعاني وتبدلت في حياتنا وحياة الناس فأصبحت الرحمة والشفقة بالأولاد تكمن في شراء الفيديو، والتليفزيون لمشاهدة أفلام العنف والجنس والجريمة!!! وإقرار الفتيات على التبرج والاختلاط... بزعم أن كل إنسان معلق من عرقوبه!!! وبدعوى الاستمتاع بشبابهن!!! ومواجهة الإلحاد والكفر بأنها حرية

شخصية وحرية فكر ورأي. . . ونصطنع الابتسامة الهادئة والدبلوماسية الفاجرة، حتى عدنا لا نغير منكرًا لا بألسنتنا ولا بأيدينا، بل ألفت القلوب الضلالات واعتادت النفوس مشاهدة المنكرات.

إن الرحمة لا تتحقق إلا بالحرص على من تدعو، والشفقة الحقيقية لا تتم إلا بمحبة الخير للناس في العاجل والآجل ولذلك وصف ربنا جلَّ وعلا نبيه ﷺ بقوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة التوبة: ١٢٨).

ومن الرحمة القول الحسن الذي لا مخالفة فيه لأمر الله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (سورة البقرة: ٨٣) وهذا القول متأكد في الغضب والرضا، وقد كان أويس بن عامر القرني رضي الله عنه يقول: نأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيشتموا آباءنا ويسبوا أعراضنا فوالله لا ندعهم حتى نقوم بحق الله فيهم.

٦- الصبر والحلم:

الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر، والعبد لا ينفك عن

نعمة يجب عليه أن يؤدي شكرها وابتلاء يجب عليه أن يواجهه بصبر، وقد خص سبحانه في الانتفاع بآياته، أهل الصبر، وأهل الشكر، فقال في أربع مواضع من كتابه: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (سورة سبأ: ١٩).

والناظر في قصة صاحب يس يلمس فيه إيمانًا صادقًا وتحليًا بمعاني الصبر واليقين ولذلك كان إمامًا في الدين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (سورة السجدة: ٢٤).

وإذا كان فعل الواجبات والانتهاء عن المحرمات والرضى بالقضاء لا يتم إلا بصبر، فدعوة صاحب يس وسيرته خير شاهد على ذلك، فلم يتخل عن الدعوة، وتباعد بنفسه عن أدران الشرك، ولم يواجه الأذى بجزع أو تشكي، ولم يثبت أنه لطم خدًا أو شق جيبًا، بل كانت قوة إقدام نفسه مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة إحجامها إمساكًا عما يضره، ولم يكن صبره سلوكًا سلبيًا كهذا السلوك الذي يعيش به كثير من الناس فتولد لهم معاني الاستسلام

والخضوع والمذلة، بل كان صبرًا إيجابيًا فيه معاني التأسي كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (سورة الأحقاف: ٣٥).

إن الداعية الصابر الصادق يردد بلسان حاله قبل مقاله: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

إن صاحب يس لم يكتف بالإيمان مسرعًا حاملاً الدعوة إليهم، بل واجه جهلهم بصبر عظيم، وحلم كبير، ولم يرد الانتقام منهم بعد ما قتلوه، بل قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾

(سورة يس: ٢٦-٢٧).

ما أعظم حظه مما كان عليه رسول الله ﷺ من صبر وحلم. فقد روي عن عبد الله بن سلام من قصة زيد بن سعنة قال: **إن الله عزَّ وجلَّ لما أراد هدي زيد بن سعنة، قال زيد: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله،**

ولا يزيده شدة الجهل إلا حلمًا. فكنت أنطلق إليه لأخالطه فأعرف حلمه من جهله، فخرج يومًا من الحجرات. يريد النبي ﷺ. ومعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه... فجاءه رجل يسير على راحلته كالبدوى فقال: يا رسول الله إن قرية بني فلان أسلموا، ودخلوا في الإسلام، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رغداً، وقد أصابتهم سنة وشدة وقحطًا من العيش... وإني مشفق أن يخرجوا من الإسلام طمعًا كما دخلوا فيه طمعًا، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به فعلت... فقال زيد بن سعنة: فقلت: أنا أبتاع منك بكذا أو كذا وسقًا فباعني، وأطلقت هميانى وأعطيته ثمانين ديناراً فدفعها إلى الرجل وقال: «أعجل عليهم وأغثهم»، فلما كان قبل المحل بيوم أو يومين أو ثلاثة فخرج رسول الله ﷺ إلى جنازة بالبقيع ومعه أبو بكر وعمر في نفر من أصحابه، فلما صلى على الجنازة ودنا من الجدار جبذت برديه جبذة شديدة حتى سقط عن عاتقة، ثم أقبلت بوجه جهم غليظ فقلت: ألا تقضيني يا محمد؟... فوالله ما علمتكم يا بني عبد المطلب إلا مطل، وقد كان لي بمخالطتكم علم، قال زيد: فارتعدت فرائص عمر بن الخطاب رضي الله عنه كالفلك المستدير، ثم رمى

ببصره، ثم قال: أي عدو الله أتقول هذا لرسول الله؟ وتصنع ما أرى؟ وتقول ما أسمع؟ فالوالذي بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقني رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في تؤدة وسكون ثم تبسم ثم قال: «لأنا وهو أحوج إلى غير هذا منك، أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن الاقتضاء... اذهب به يا عمر فاقض حقه، وزده عشرين صاعًا من تمر مكان ما روعته»، فقلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، فمن أنت، قلت: أنا زيد بن سعنة، قال: الحبر؟، قلت: الحبر، قال: فما دعاك إلى أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت؟ وتقول له ما قلت؟!، قلت: يا عمر إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، فقد اختبرته منه، فأشهدك يا عمر أنني قد رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، وأشهدك أن شطر مالي، فإني أكثرها مالاً، صدقة على أمة محمد ﷺ، فقال عمر: أو على بعضهم، فإنك لا تسعهم كلهم، قلت: أو على بعضهم، قال: فرجع عمر وزيد بن سعنة إلى رسول الله ﷺ فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فآمن به وصدقه وبايعه، وشهد معه مشاهد كثيرة.

★ تجفيف المنابع سياسة قديمة:

حرص الباطل والكافر على وأد دعوة الإسلام، وتجفيف منابع الخير، حرص قديم، لا يقتصر على قتل المرسلين، ثم من بعدهم صاحب يس، حتى يسكتوا صوت الحق والهدى إلى الأبد فمن قبل استهزءوا بنبي الله نوح وكذبوه وقالوا: ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (سورة هود:٢٧) ووضعوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارًا.

وحاولوا إحراق نبي الله إبراهيم بالنار وتهدده والده بالرجم والطرد والإبعاد ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ (سورة مريم:٤٦).

وتنادي قوم لوط: ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (سورة النمل:٥٦).

كما حذر الملأ فرعون من دعوة نبي الله موسى وقالوا: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ

أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾

(سورة الأعراف: ١٢٧).

لقد قتلوا نبي الله زكريا وابنه يحيى، وحاولوا قتل المسيح فأنجاه الله ورفعه إلى السماء. ومحاولات قريش مع رسول الله ﷺ لمنع دعوته بالترغيب والترهيب تارة أو المقاطعة الاقتصادية ثم الاستهزاء والسخرية تارة أخرى، ثم تآمرهم على قتله تارة ثالثة ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (سورة الأنفال: ٣٠).

ثم لما انتقل إلى المدينة، لم ينته الصراع بل شنوا الحرب تلو الأخرى وانضاف إليهم اليهود، والمنافقون، كل ذلك رجاء منع كلمة الحق من الوصول إلى الناس.

فحرص الكفار على تجفيف منابع الإسلام حرص قديم يأخذ أشكالاً وصوراً متعددة قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (سورة إبراهيم: ١٣).

وشبيه بما حدث مع الأنبياء والمرسلين، يحدث مع

أتباعهم كصاحب يس وأصحاب الأخدود. . . ولو انتقلنا إلى الآونة الأخيرة لوجدنا أن الحكومة السوفيتية حين هاجمت الإسلام سلكت طريقًا غير مباشر في بداية الأمر وذلك بالقضاء على المؤسسات الإسلامية الثلاث وهي: أولاً: الأوقاف، ثانيًا: المحاكم الشرعية، ثالثًا: التعليم الديني الإسلامي.

وكانت هذه التجربة الرائدة التي سار عليها الشياطين هنا وهناك في محاولتهم تجفيف منابع الإسلام، فمن الدعوة إلى جعل الإسلام (عصريًا) إلى الدعوة إلى العلمانية (أي فصل الدين عن الدولة) وأخيرًا محاولة الإجهاز على منابع الإسلام الاقتصادية والتعليمية والتشريعية والسعي في إنهاء الكثير من شعائر الإسلام الظاهرة فهذا هو سعيهم قديمًا وحديثًا ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (سورة البقرة:١١٨). وهذا هو حرصهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة الصف:٨).

★ انتصر صاحب يس رغم مصرعه:

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (سورة غافر: ٥١)، وقال سبحانه: ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ (سورة الروم: ٤٧)، وقال: ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ (سورة محمد: ٧)، وقال جل وعلا: ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين (١٧١) إنهم لهم المنصورون (١٧٢) وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ (سورة الصافات: ١٧١-١٧٣).

ومن المعلوم أن وعد الله لا يتخلف، والنصر حاصل حتى وإن طرد دعاة الحق أو قتلا أو عذبوا، وهذا النصر لا يقتصر على صورة واحدة، فمن الأنبياء من آذاه قومه، فنصره الله عليهم فأهلكهم وأقام الدين في حياته، كموسى ومحمد عليهما أفضل الصلاة والسلام، ومنهم من ولاه الله الملك، وهو نصر عظيم... كداود، وسليمان عليهما السلام، ومنهم من آذاه قومه، ولم يؤمنوا به سوى قليل منهم فنجاه الله ومن معه وأهلك عدوه كنوح، وهود، وصالح، ولوط، ومنهم من قتله قومه، أو حاولوا قتله فانتقم الله له بعد حين، كيحيى، وعيسى، ومنهم من يئس من قومه فتركهم فعاقبه الله ثم عفا عنه، ولما عاد إليهم، نصره الله نصرًا مؤزرًا، وظهر الدين وهو يونس عليه السلام.

ومن الدعاة من قتله قومه فآمن به بعض قومه فقتلوا وحرقوا وهؤلاء هم أصحاب الأخدود الذين ثبتوا على معاني العقيدة وفهموا حقيقة الانتصار ويتضح منها كيف انتصر الغلام عندما فاز بالشهادة في سبيل الله وانتصرت إرادته وعقيدته وفهمه وقراره عندما تحقق ما كان يتوقعه وقدم نفسه من أجله، فآمن الناس وقالوا: آمنا بالله رب الغلام، وانتصر أخيرًا عندما خلد الله ذكره قدوة لمن بعده وذكرًا حسنًا على لسان المؤمنين حيث جعل الله له لسان صدق في الآخرين، وكذلك الأمر بالنسبة للمرسلين الثلاثة ولصاحب يس فقد نصروا نصراً مؤزرًا على الرغم من مصرعهم.

■ ويتمثل النصر في الحقائق التالية:

١ ـ أن هؤلاء الرسل قد بلغوا رسالة الله ولم يستسلموا لشبه أهل القرية أولاً وتهديدهم ثانيًا، وهذه هي مهمتهم ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (سورة يس: ١٧)، ومن أدى ما عليه فقد انتصر وفاز.

٢ ـ إيمان رجل من أهل القرية بهم، وتأييده لهم علانية، يعد نصرًا وانتصارًا له ولهم.

٣ ـ أن قتل الداعية نصر له ولمنهجه ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ (سورة التوبة: ٥٢)، ولذلك ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ (سورة يس: ٢٦)، فتمنى أن يعلن عن فوزه وانتصاره: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (سورة يس: ٢٦-٢٧).

٤ ـ وتتويجًا لانتصارات هؤلاء الرسل وهذا الداعية جاءت النهاية المحققة ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (سورة يس: ٢٨-٢٩).

٥ ـ انتصاره على نفسه، كما ورد عند الطبري فقد كان يقول أثناء قتل قومه له: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يس: ٢٦)، وهذا من حرصه على هداية قومه، وهكذا يكون الداعية محبًا لهداية الناس، لا يحمل الحقد ولا الضغينة، ومن حرم الانتصار على نفسه فلن ينتصر على غيره.

★ استدراج الله العباد وإملاؤه لهم:

عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن



الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (سورة هود: ١٠٢)»، (رواه الشيخان وغيرهما).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا ـ على معاصيه ـ ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا:** ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ (سورة الأنعام: ٤٤)».

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ **سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** ﴾ (سورة القلم: ٤٤-٤٥).

قال العلماء: يسبغ عليهم نعمه ويمنعهم شكره، وقالوا: كلما أحدثوا ذنبًا أحدث الله لهم نعمة.

إن أصحاب القرية واجهوا نعمة الله بكفر وجحود، فلم يقيموا واجب العبودية فلما بعث فيهم المرسلون قتلوهم، وبدلاً من أن يتوبوا تمادوا في غيهم وضلالهم ظانين أن الأمر سيدوم لهم، فصرعوا صاحب يس، فكانت نهايتهم المحتومة ﴿ **إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ**

خَامِدُونَ ﴾ (سورة يس:٢٩)، ولعذاب الآخرة أشد، وما ربك بظلام للعبيد، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

★ الشرع لا يفرق بين المتماثلين ولا يساوي بين المختلفين:

من رحمة الله وعدله، أنه لم يجعل المسلم كالكافر، لا في الحياة ولا في الممات، قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (سورة القلم:٣٥-٣٦)، فإن تساوينا نحن وهم استحققنا من العذاب ما استحقوه، قال تعالى بعد ما ذكر عذاب قوم لوط: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (سورة هود:٨٣). وقد ذكرت قصة أصحاب القرية مع المرسلين وصاحب يس تسلية لرسول الله ﷺ وصحابته الكرام من جهة، وردعًا لكفار قريش ومن كان على شاكلتهم من جهة أخرى، وختمت القصة ببيان هلاك أصحاب القرية ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ (سورة يس:٢٩) ثم أعقبها ربنا جلَّ وعلا بقوله: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (سورة يس: ٣٠).

★ إن الذنوب التي أهلك الله بها الأمم قسمان:

▪ معاندة الرسل وجحد رسالاتهم والإسراع في الفجور والذنوب، فالقسم الأول يهلك الله تعالى أصحابها ويعذبهم عذاب استئصال وإبادة، كما فعل بقوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وشعيب.

▪ أما القسم الثاني فيصابون بالمجاعات، والجوائح والأمراض، والاختلاف، والزلازل... وقد يكون مع ذلك موت وقد لا يكون، وعذاب الأمة المسلمة من هذا القبيل، فإن الله لا يستأصلها ولا يهلكها بسنة عامة كما يفعل مع الأمم السابقة ولكنه يعذبهم بأنواع عديدة متنوعة من البلاء كما وردت بذلك الأخبار.

وعمومًا فالبلاء الذي يتنزل بالكافر نقمة، أما البلاء الذي يتنزل بالمؤمن فهو رحمة، إذ فيه تمحيص الخطايا والذنوب ورفع الدرجات كما يدعوه للإنابة والتوبة بعكس الكافر الذي ينزل به البلاء فشأنه كشأن البعير عقله أهله ثم حلوه فلم يدر لم عقلوه ولم حلوه، نسأل الله السلامة والعافية.

★ علـو الهمـة:

أي همـة أعلى من أن يحـيـا الإنسـان بالحق وللحق، ويسعى جاهدًا لإظهـاره، ويبذل عمره وحيـاته في سبيله، أي همـة أعظم مـن تلك التي تابعت المرسـلين، وسلكت طريقهـم، ولم تنكص على عقـبها القـهقـري بعد أن رأت مـصرعـهم، بل أتت مـن أقصى المدينـة تسعى، لـتواجـه مصيرها المحتوم.

لقد علم صاحب يس الغاية من خلق الخلق، فرأى أنه لابد من الارتفاع لمستوى الإسـلام، ولذلك كان توحيد الله جلَّ وعلا هو بداية الأمـر ونهايته، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء: ٢٥)، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (سورة النحل: ٣٦).

وما من نبي إلا قـال لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (سورة الأعراف: ٦٥).

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه

عندما وجهه لليمن: «**إنك تقدم على قوم أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يعبدوا الله، فإذا هم عرفوا الله، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة**».

ومن المعلوم أن الكلمة التي تدخل بها في الإسلام هي شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، أي لا معبود بحق إلا الله، والتوحيد توحيدان: توحيد المرسل جلَّ وعلا وتوحيد متابعة الرسول ﷺ، وإذا كان رأس المعروف توحيد الله تبارك وتعالى، فإن أحط دركات المنكر، الكفر بخالق الأرض والسموات ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (سورة الزمر: ٦٥)، ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ (سورة النساء: ١١٦).

فدعوة صاحب يس ومجيئه، ومظهره ومخبره تدل على همة عالية، بل هو العلو في الحياة وعند الممات، إن صاحب يس لم يكن دبلوماسيًا مراوغًا يعيش حياة الثعالب، ويستبيح الكذب، والغش، والخداع، ويبرر لنفسه الوسائل المنحطة من أجل غايات الوصول والكسب.



أين مثل صاحب يس الآن؟

للأسف لقد غابت معاني القدوة والقيادة الحقة في حس الكثيرين، وأصبحت الطموحات كسب الدرهم والدينار، أو الهجرة إلى أمريكا وكندا!! أي لدنيا يصيبها وامرأة يتزوجها، إن أمنية الشباب الآن أن يكن لاعب كرة أو مذيعًا أو فنانًا أن يكون طبيبًا أو مهندسًا... والفتاة تريد أن تكن راقصة أو مغنية أو عارضة أزياء ولو أتى ذلك على حساب الدين وصار به ملحدًا زنديقًا.

أين الآن من يهاجر لله ورسوله؟!

أين من يأتي من أقصى المدينة يسعى لدعوة الخلق باذلاً مهجته في سبيل الله، تاركًا المال والأهل والوطن استجابة لأمر الله؟!

لا نغالي لو قلنا: إننا بحاجة لإعادة صياغة سواء أكنا رجالاً أو نساءًا، كبارًا أو صغارًا، حتى نرتفع لمستوى إسلامنا فقد علمنا القرآن أن ندعو ونقول: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

(سورة الفرقان: ٧٤)



فالمؤمن إذا دعا ربه قال: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (سورة الفرقان: ٧٤)، ولم يكتف أن يكون من جملة المتقين.

إنه علو الهمة الذي ربت عليه هند بنت عتبة ابنها معاوية رضي الله عنهما، فقد دخل عليهما يومًا أحد أقاربها وهي تحمله، فقال لها: إن عاش معاوية ساد قومه، فقالت: ثكلته إن لم يسد إلا قومه.

إن الحياة الذليلة لا قيمة لها، والعلو في الأرض إن لم يتم على أساس من الإيمان والعمل الصالح لا خير فيه ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٩).

إن موتى الأحياء كثيرون وكم من ميت يحيى بذكره القلوب.

★ أسباب للهلاك فاعتبروا يا أولي الألباب:

من أهم وأعظم أسباب الهلاك: الكفر بالله، والجحود لوحدانيته، ورد دعوة رسله، والاستهزاء، والسخرية بآياته، وتعطيل شريعته، والصد عن سبيله وقتل الداعين إليه من الأنبياء وأتباعهم.

• وقد وردت النصوص بتفصيل هذه الأسباب؛ ومنها:

١ـ كثرة الخبث:

لما روت زينب بنت جحش رضي الله عنها: **أن رسول الله ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا يقول: «لا إله إلا الله ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق باصبعه الإبهام والتي تليها»، قالت زينب: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: «نعم إذا كثر الخبث»** (رواه البخاري ومسلم).

٢ـ الاختلاف في كتاب الله:

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: هجرت (جئت مبكرًا) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرف في وجهه الغضب؛ فقال: **«إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في هذا الكتاب»** (رواه أحمد ومسلم).

٣ـ كثرة السؤال والاختلاف على الأنبياء:

لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال: «يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجُوا»، فقال رجلٌ: «كل عام يا رسول الله، فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال: «لو قلتُ نعم لوجبت ولما استطعتم». ثم قال: «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» (رواه مسلم).

٤ـ الغلو في الدين:

لحديث: «إياكم والغلو في الدين»، والغلو في الدين: هو مجاوزة الحد، وفي الحديث أيضًا: «هلك المتنطعون ثلاثًا» (رواه أحمد ومسلم)، والتنطع هو التعمق في الشيء ومنه التغالي في العبادات حتى تخرج عن قوانين الشريعة.

٥ـ التنافس في الدنيا:

لقول رسول الله ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم» (رواه البخاري).

٦ـ الشـــح:

لما رواه جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**» (رواه البخاري ومسلم).

وورد: «**إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا**» (رواه أبو داود والحاكم).

٧ـ ظهور الربا والزنى وتعاطي الرشوة:

لحديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**ما ظهر في قوم الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عزَّ وجلَّ**» (رواه أحمد بسند صحيح).

وفي الحديث: «**ما من قوم يظهر فيهم الربا إلا أخذوا بالسنة (الجدب والقحط)، وما من قوم يظهر فيهم الرِّشا إلا أخذوا بالرعب**» (رواه أحمد).



٨ـ البَخس في الكيل والميزان ومنع الزكاة ونقض العهود وعدم تنفيذ أحكام الله:

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن، لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا الكيل والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر (المطر) من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله ﷺ إلا سلط الله عليهم عدوهم من غيرهم فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عزَّ وجلَّ ويتحروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم**» (رواه ابن ماجه والحاكم وسنده صحيح).

٩ـ ظهور المعاصي وعدم تغييرها:

لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ (سورة الأنفال: ٢٥).

وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم» (رواه أحمد والترمذي بسند صحيح).

١٠ ـ إقامة الحد على الضعيف وترك الشريف:

لقول رسول الله ﷺ: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (رواه البخاري).

١١ ـ اتخاذ القصَّة ووصل الشعر بغيره:

لقول معاوية وهو على المنبر وتناول قصة من شعر كانت في يد حرس: يا أهل المدينة أين علماؤكم، سمعت رسول الله ﷺ نهى عن مثل هذه ويقول: «إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم» (رواه البخاري ومسلم).

١٢ ـ مخالفة أمر رسول الله ﷺ:

لقوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (سورة النور: ٦٣).

وفي الحديث: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم» (رواه أحمد بسند حسن، والبخاري تعليقًا).

١٣ ـ ترك الجهاد والإخلاد إلى الدنيا:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم» (رواه أحمد).

١٤ ـ استحلال العرب لبيت الله الحرام:

لحديث: «يبايع لرجل بين الركن والمقام، ولن يستحل هذا البيت إلا أهله، فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم تظهر الحبشة فيخربونه خرابًا لا يعمر بعده أبدًا، وهم الذين يستخرجون كنزه» (رواه أحمد وأبو داود والحاكم).

١٥ ـ ولاية غلمان قريش وإمارتهم على الناس:

لحديث: «هلكة أمتي على يد غلمة من قريش»، رواه

البخاري، ورواه أحمد والنسائي بلفظ: «**إن فساد أمتي على يد غلمة سفهاء من قريش**».

١٦ـ إذا ظهرت المعازف والمغنيات:

الحديث: «**ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات، يخسف بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير**» (رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه).

١٧ـ التكذيب بالقدر:

الحديث: «**في هذه الأمة أو في أمتي خسفٌ أومسخٌ أو قذف في أهل القدر**» (رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وقال: حديث صحيح غريب).

★ الحق لا يعرف بكثرة ولا بقلة ولا بغنى ولا بفقر:

على الحق نور، وهو أبلج، يقبل من كل من جاء به، وهو ما وافق الكتاب والسنة، والباطل بضد ذلك، فاعرف الحق تعرف أهله واعرف الباطل تعرف من أتاه، واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين.

ومن نظر في دعوات الأنبياء والمرسلين، يجد أن الضعفاء والمساكين هم أنصار الرسل في كل زمان ومكان، وهم الأسعدون بالانقياد لله تعالى ودعاته وخصوصًا في بداية الأمر، ولذلك قال نوح له: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ (سورة هود:٢٧)، وقالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ (سورة الشعراء:١١١) وقال كفار قريش: ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ (سورة الأحقاف:١١) يعنون ضعفاء المسلمين.

وساق الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في كتاب بدء الوحي حديث ابن عباس من إرسال هرقل إلى أبي سفيان وسؤاله إياه عن النبي ﷺ وأنه قال له: «فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم، فقال له: بل ضعفاؤهم، قال هرقل: وهم أتباع الرسل، وكان هرقل حذاءً ينظر في النجوم وعلى معرفة بالكتاب الأول». ولما جاء المشركون لرسول الله ﷺ يطلبون منه أن يطرد الضعفاء من مجلسه حتى يجالسوه هم نزل قوله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (سورة الأنعام:٥٢).

وقصته ﷺ مع ابن أم مكتوم الأعمى مشهورة، وجاء في السنة الصحيحة أن الضعفاء والفقراء سيدخلون الجنة قبل أغنياء المسلمين بخمسمائة سنة.

فالاعتبار إنما هو بموافقة الحق لا بقوة هذا وضعف ذاك، ولا بشرف الأول ووضاعة الثاني.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ (سورة سبأ: ٣٤).

وقال سبحانه: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ (سورة الأعراف: ٨٨). وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (سورة المؤمنون: ٣٣). والملأ هم السادة والعظماء والوجهاء، ولا يكونون إلا من المترفين الأغنياء.

كما أن الحق لا يعرف بكثرة ولا بقلة لقوله سبحانه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (سورة الأنعام: ١١٦)، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ



بمؤمنين﴾ (سورة يوسف:١٠٣)، ولقوله جلَّ وعلا: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ (سورة يوسف:١٠٦).

وقصة صاحب يس مع أهل القرية خير شاهد على ذلك.

★ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً:

لقد أهلك ربنا أصحاب القرية، وهو غير ظالم لهم وكان إهلاكهم بعد تتابع النذارة فيهم.

قال تعالى: ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون (١٤) قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون (١٥) قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون (١٦) وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ (سورة يس:١٤-١٧).

فلما قتلوا المرسلين الثلاثة، أتى صاحب يس من أقصى المدينة يسعى، يواصل المسيرة، ويبشر من آمن بالجنة وينذر من كفر بالعذاب، وهذا من رحمة الله بخلقه ومن سنته في عباده، أنه لا يعذب ولا يهلك أحدًا إلا إذا ذكَّرهم وأنذرهم.

قال تعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون (٢٠٨) ذكرى وما كنا ظالمين﴾ (سورة الشعراء:٢٠٨-٢٠٩).

وقال تعالى: ﴿ وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (سورة فاطر: ٢٤).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ (سورة القصص: ٥٩).

لقد أخذ ربنا على الخلق العهد والميثاق أنه ربهم ومليكهم لا رب غيره ولا معبود بحق سواه.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

(سورة الأعراف: ١٧٢-١٧٣).

ولم يكتف سبحانه بأن ركب في العباد عقولاً وأودع فيها فطرًا، بل أنزل لهم الكتب وأرسل لهم الرسل ليحيي من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة.

قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ١٣١).

وفي الحديث: «**لا أحد أغير من الله ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبُ إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل**» (رواه البخاري ومسلم والترمذي عن ابن مسعود ﷺ).

وهؤلاء الرسل والدعاة على دربهم يقيمون حجج الله وبيناته على العباد، فإذا نسوا ما ذكروا به أهلكهم حينئذ بغتة وكان البأس الشديد الذي لا يُرد عن القوم المجرمين جزاءًا وفاقًا.

قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾

(سورة الأنعام: ٤٤-٤٥).

قد يمهل الله أقوامًا ويرجئ عذابهم إلى وقت ما، ويمدهم مع ذلك بالأموال والبنين ويوسع عليهم في حياتهم، ويمهد لهم سبل المعاش، فيظن الجهال منهم بسنة الله أنهم على خير وأنهم ناجون غير معاقبين، وأن حالتهم

تلك لا توجب لهم نقمة ولا يستحقون بها بأسًا، فيتمادون في غـيهم وعـتـوهم ولا يرفـعون بأمـر الله رأسًـا كحـالة أصحاب القرية، وهذا من الاغترار.

قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة المؤمنون: ٥٥-٥٦).

وقال سبـحانه وتعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (سورة الحج: ٤٨).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾

(سورة آل عمران: ١٧٨).

وفي تفسير قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنعام: ٤٤-٤٥) ذكـر العلماء: أنه كـان بين تذكيرهم ومـواجهتهم له بالإعراض والـتكذيب وبين انتقام الله منهم أكثر من عـشرين سنة. وقد وردت الآيات توضح أن الله تعالى قـد يرفع بعض الشدائد عـن هؤلاء المجرمين

ليرجعوا عما هم فيه ويتوبوا إليه ويكفوا عن كفرهم وضلالهم ولكنهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (سورة المؤمنون: ٧٥) وقال تعالى في قوم موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾

(سورة الأعراف: ١٣٥).

فمن رحمة الله بخلقه تنويع أسباب الهداية بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ٩٥).

وقال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ١٦٨).

والحسنات هي الرخاء والخصب والعافية، والسيئات هي الجدب والبلاء والعقوبة، وهذا التنوع لا يجدي نفعًا مع من انطمست بصيرته، وران على قلبه، بسبب إسرافه على نفسه في الكفر والذنوب والمعاصي، فهو ينظر له على

أنه أمر عادي طبيعي لا دخل للإيمان ولا للكفر به، فهم لا بالعذاب والعقاب يتأدبون ولا بالخير والرخاء يتهذبون، فهم في كل أحوالهم كافرون ظالمون وبنعم الله يَبْطرون.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(سورة الأنعام: ٤٢-٤٣).

ما أعظم حلم الله على عباده، وما أكثر نعمه عليهم، فاللهم اجعلنا من الشاكرين لنعمك المثنين بها عليك، وثبت قلوبنا على دينك وتوفنا مسلمين غير خزايا ولا مفتونين ولا تجعلنا اللهم من هؤلاء الذين قلت فيهم: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

(سورة الأعراف: ١٧٩).

ولا تجعلنا اللهم من هذا الصنف الذي عنيته بقولك سبحانك: ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ

لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ (سورة الأعراف: ١٤٦). . . اللهم آمين.

★ الدنيا والآخرة حسبة واحدة:

انتقالة سريعة من حياة إلى حياة، والفارق بينهما لحظة خروج الروح، ونقلة عجيبة من دار هي سجن المؤمن إلى حياة أوسع وأرحب، تحكيها قصة صاحب يس.

هذه القصة التي تضمنت الكثير من الفوائد على الرغم من اختصارها وإيجازها فقد ذكرت في بضع آيات بينات سريعة الإيقاع، وصفت لنا دعوة صاحب يس المباركة ومجيئه ونهايته، وكأنه كان يستحث الخطوات ليلقي حتفه كما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ (سورة يس: ٢٠)، وكأن الآيات تذكرنا بأن الأنفاس تعد والرحال تشد والعارية ترد والتراب ينتظر الخد، وعلى أثر من سلف يمشي من خلف، ومن ثم إلا أمل مكذوب وأجل مكتوب، وكل نفس ذائقة الموت فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

من كان يتصور أن صاحب يس وهو في الحياة والحيوية سيصير جثة هامدة بعد لحظات، وهل فات الآيات أن توضح لنا كيفية قتله؟

كلا فالموت نهاية كل حي، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره، ولذلك كان حرص الأفاضل على طلب معالي الأمور حتي في الموت، ولذلك قال خالد بن الوليد ﷺ: «لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في جسدي إلا ضربة سيف أو طعنة رمح وها أنا ذا أموت كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء» وقتل ابن الزبير وعلق على الخشب بعد أن خلع أذراعه نزولاً على أمر أمه أسماء ﷺ أجمعين، إنها الرفعة في الحياة وعند الممات.

لقد قتل صاحب يس، فانتقل إلى دار الكرامة، وآن له أن يطمئن على نفسه فقال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (سورة يس: ٢٦-٢٧).

إن الحياة تمتد زمانًا ومكانًا في نظر المؤمن، زمانًا لأبد

الآبدين ومكانًا لجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ونحن في واقع الأمر نتنقل من حياة دنيوية إلى حياة برزخية إلى حياة أخروية وكل صورة أرحب وأوسع من سابقتها، والمؤمن في طلبه الدار الآخرة قد يتنسم عبير الجنة وهو ما زال على ظهر هذه الأرض كأنس بن النضر رضي الله عنه يوم أحد عندما انكشف الصحابة وسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات ـ وما كان مات ـ قال: علام الحياة بعده قوموا فموتوا على مثل ما مات عليه ثم تبرأ إلى الله مما جاء به المشركون واعتذر إلى الله مما فعله أصحابه وقال: واهًا لريح الجنة إني لأجد ريحها من دون أحد، ودخل يقاتل حتى قتل رضي الله عنه وما عرفته إلا أخته ببنانه.

ولما سمع عمير بن الحمام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»، قال: بخ بخ، فقال له رسول الله ﷺ: «علام قلت بخ بخ؟!»، فقال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال له: «فإنك من أهلها»، وأخرج تمرات من قرنه يأكل منها ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فألقى بها ثم دخل فقُتل رضي الله عنه.**

إن صاحب يس وأنس بن النضر وعمير بن الحمام رضي الله عنهم أجمعين، إخوة بعضهم على شاكلة بعض كانت الدنيا والآخرة في حسهم حسبة واحدة وطريق واحد.

★ بل الكل ممتحن:

عندما نتأمل امتحانات الدنيا وما يحدث فيها من نجاح ورسوب وما يستتبع ذلك من فرحة وحزن وتفاوت هنا وهناك وما يسبق هذه الامتحانات من تأهل واستعداد وتهيئة وما يصاحبها من اضطراب وتخوف... نجد أنها بمثابة التذكرة بالامتحان الأكبر.

قال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ (سورة الكهف: ٧).

وقال سبحانه: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ (سورة الملك: ١-٢).

والفارق كبير بين امتحان الدنيا وامتحان الآخرة، فمعرفة العبد أنه سيقف بين يدي من لا تخفى عليه خافية

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سورة المجادلة: ٦).

وأنه لن تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسده فيما أبلاه، وأن الأمر إما جنة وإما نار.

﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (سورة الشورى: ٧).

وهنا وهناك خلود فلا موت.

قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (سورة مريم: ٣٩-٤٠).

وشتان بين من يؤتي كتابه بيمينه وبين من يؤتي كتابه بشماله.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا

أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾

(سورة الحاقة: ١٩-٢٩).

ثم لا سبيل للرجوع إلى الدنيا للإيمان والعمل الصالح كما يستدرك الطلبة في امتحانات الدنيا بإعادة السنة أو بالدورالثاني . . . بل تأتي نفس تقول: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ (سورة غافر: ١١)، وتقول الثانية كما حكى القرآن: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (سورة فاطر: ٣٧)، وتأتي الثالثة تقول: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ (سورة الزمر: ٥٦)، وتقول الرابعة: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ (سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠).

فتأتي الإجابة: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٠).

وكأني بصاحب يس قد علم أنه مأخوذ عليه. وأنه موقوف ومسئول ولا سبيل للنجاة إلا بالصدق فأتى من



أقصى المدينة يسعى... يسابق الريح في مرضات الله ويقول: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ (سورة طه: ٨٤)، وسرعان ما انكشف الغطاء وظهرت نتيجة الامتحان فقيل له: ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (سورة يس: ٢٦-٢٧)، ولما افترق السعي، وكان البون شاسعًا بين الإيمان والكفر اختلفت النهايات ونتائج الامتحانات، قال تعالى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ (سورة يس: ٢٩).

ياليتنا نعي حقائق الأشياء ونأخذ عظة وعبرة ودرسًا وتذكرة من كل شيء يحدث حولنا ونطلق أبصارنا وبصائرنا في الكون من حولنا، يا ليتنا ونحن نهتم بامتحانات آخر العام نضع الموت نصب أعيننا ونتذكر السؤال في القبر وحالة العباد عند الميزان وتطاير الصحف عند الصراط.

وياليتنا أيضًا ونحن نهتم بأولادنا ونعدهم ليكونوا أطباء ومهندسين... ونتعاهد أجسادهم ونبدي النصيحة لهم حتى يهتموا بدراستهم ونحزن لإهمالهم فيها

ورسوبهم. . . لا يفوتنا أن نذكرهم بأمر الآخرة وأن يكونوا عبادًا صالحين يحرصون على طاعة ربهم ويؤدون الصلاة في وقتها ويطالعون كتاب ربهم. . . حتى يفوزوا بسعادة الدارين، فإن لكل مقام مقالاً. . . شيء من الاهتمام بقلوبهم وقلوبنا حتى نخرج من الامتحان بسلام إلى دار السلام.

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت: ١-٤).

اللهم اجعل صمتنا فكرًا ونطقنا ذكرًا ونظرنا عبرًا.

★ رجلٌ والرجال قليل:

الرجولة الحقة عملة نادرة، كثيرًا ما يُذكر أهلها في كتاب الله تعالى في معرض الثناء والمدح، كما في قوله تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (سورة الأحزاب: ٢٣)، ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ (سورة التوبة: ١٠٨)، ﴿ رِجَالٌ لاَّ

تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ (سورة النور: ٣٧).

ولقد كان صاحب يس رجلاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان، وبغض النظر عن اسمه ورسمه وسنه، رجل عرف غايته فلم ينشغل عنها، وأدى مهمته وأمانته بلا تفريط أو تقصير، آثر ما عند الله على مُتع الدنيا الزائلة، ارتسم الصدق على كلماته وفي أفعاله، نصح قومه حيًا وميتًا وتمنى الخير لقتلته، تطهر من الأدناس، وعلم أن التوحيد طهارة لأنه اعتراف بالحق، فعمل به ودعا الناس إليه، وأن الشرك نجاسة، لأنه جحد للحق، وهذه رذيلة وأي رذيلة فتباعد عنه وحذر الناس منه وقال: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ﴾

(سورة يس: ٢٢-٢٣).

لقد غابت معاني الأسوة الحسنة واضمحلت معاني القدوة الطيبة، وفُرغت الكلمات من رصيدها ومحتواها، فصار الإنسان يوصف باللطف والظرف والوسامة وليس في

قلبه مثقال حبة خـردل من إيمان، وظهر شباب قُنع لا خير فـيهم لا يعـرفون إلا الرقص والغـناء والفيلم والمسـرحيـة والأزياء والتسريحات. . . وحـدث انقسام مريب بين بعض الرجـال وبعض، فـهـؤلاء هم رجـال الدين، وأولئك هم رجال الدولة، وانـفصل الدين عن الدولة وأصـبح الإسلام وكأنه ينادينا من مكان بعيد من يوم بدر وأحد: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ (سورة آل عمران: ١٤٤).

آيات بينات رددهـا مـصـعب بن عـمـيـر ﷺ لحظة مصرعه يوم أحد، وذكر بها أبو بكر الصديق الصحابة ﷺ أجـمـعين يوم وفـاة رسـول الله ﷺ، ونحن اليـوم مـا أحوجنا أن نتذكرها حـتى نخلص أمرنا لله ونعمل بالإسلام وللإسلام، فيا له من دين لو أن لـه رجالاً، يبذلون الغالي والرخيص في سبيله ويجددون سيرة الأنبياء والمرسلين ومن تبعـهم بإحسان كـصاحب يس، ويعيـشون حيـاة الرجولة

الحقة، فلا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار حتى يقيموا أمر الله ويبلغوا الحق للخلق، وعندهم من علو الهمة ما يرتفعون به عن السفاسف والدنايا وما يصلحون معه أن يكونوا قادة وسادة.

إن الراقصين والمغنيين والزنادقة والملحدين واللاهين والعابثين. . . لا يُذكرون إلا في معرض الذم، فالقرآن لا يخلد إلا ذكرى أمثال صاحب يس بينما ضرب الذكر صفحًا عن كثيرين ممن يوصفون بالرجولة ولا رجال، فقد ذهب الناس وبقى النسناس، ناس يشبهون الناس، همتهم في تحصيل شهوات البطون والفروج، قد تركوا دينهم وراءهم ظهريًا فضلوا وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل. فاحذرهم، واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين، واعرف الحق تعرف أهله واعرف الباطل تعرف من أتاه.

قال تعالى: ﴿ إِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (سورة محمد: ٣٨)، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (سورة المدثر: ٣١).

★ إيمان عمره لحظات صنع الأعاجيب:

لقد سمع صاحب يس دعوة المرسلين فخالطت بشاشتها قلبه وجرت منه مجرى الدم من العروق، واستحالت الآيات سلوكًا جعلته يأتي من أقصى المدينة يسعى لدعوة هؤلاء القوم، فهل قضى عمره في التدين والالتزام حتى استطاع أن يقف هذا الموقف الإيماني في مواجهة أصحاب القرية؟! وهل كان هناك فاصل بين العلم النافع والعمل الصالح في حياته كما هي حالة الكثيرين؟ أو بمعنى اخر ما شأن من قرأ المجلدات والكتب المنهجية في التوحيد والتفسير والفقه والسيرة... هل يكون أقل تدينًا والتزامًا من صاحب يس؟! ومتى انفصل العلم عن العمل والدعوة إلى الله؟!.

إن البعض موفق ومسدد، تكفيه الآية من كتاب الله أو الحديث من أحاديث رسول الله ﷺ ومن هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ مثل أبي ذر الذي أسلم وقام يجهر بكلمة التوحيد فاجتمع عليه المشركون يضربونه حتى كادوا

يقتلونه، ومثل ابن مسعود عندما سمع آيات من رسول الله ﷺ فخرج يصدع بها في مسامع المشركين. وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى سحرة فرعون عندما رأوا الآيات وآمنوا بنبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه، تهددهم فرعون وقال لهم: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ (سورة طه: ٧١) فقالوا له: ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (سورة طه: ٧٢).

قال عبد الواحد بن زيد: عصفت بنا الريح على جزيرة في البحر فإذا برجل يعبد صنمًا، فقلنا له: أيها الرجل من تعبد؟ فأومأ بيده إلى الصنم، فقلنا له: إن معنا في المركب من يعمل هذا، قال: وأنتم من تعبدون؟ قلنا: نعبد الله تعالى، قال: ومن هو؟ قلنا: الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه وفي الأحياء والأموات قضاؤه قال: كيف علمتم هذا؟ قلنا: وجه إلينا رسولاً أعلمنا به، قال: فما فعل الرسول؟ قلنا: قبضه الله إليه، قال: فهل ترك عندكم علامة؟ قلنا: ترك عندنا كتاب الملك، قال:

أرونيه؟ فأتيناه بالمصحف فقال: ما أعرف هذا؟ فقرأنا له سورة وهو يبكي، ثم قال: ينبغي لصاحب هذا الكلام ألا يعصى، فأسلم وحملناه معنا وعلمناه شرائع الإسلام وسوراً من القرآن فلما جن عليه الليل، صلينا وأخذنا مضاجعنا، فقال: يا قوم الإله الذي دللتموني عليه أينام إذا جنه الليل؟ قلنا: لا يا عبد الله، هو حي لا ينام، فقال: بئس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لا ينام؟ فعجبنا من كلامه، فلما قدمنا عبدان جمعنا له دراهم وأعطيناها له، وقلنا له: أنفقها، قال: لا إله إلا الله دللتموني على طريق لم تسلكوه إني كنت في جزيرة في البحر أعبد صنمًا من دونه فلم يضيعني، فكيف الآن وقد عرفته، فلما كان بعد أيام أتاني آت، فقال لي: إنه يعالج سكرات الموت، فجئته وقلت له: ألك حاجة؟ فقال: قد قضى حوائجي من عرفتني به، ثم رأيته في المنام في القبة والجارية إلى جانبه وهو يتلو: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

(سورة الرعد: ٢٤).

وقد روى لنا النبي ﷺ قصة المهدي، وفيها أن الله يصلحه في ليلة، يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا.

ويُحكى أن الإمام البغوي ـ رحمه الله ـ عندما أراد طبع تفسيره المشهور... سمع برجل ببلاد الهند، توسم فيه أن يساعده على ذلك، فاستأجر سفينة ليرحل إليه وبينما هو يسير بمحاذاة شاطئ دجلة إذ رأى رجلاً يمشي، فطلب من قائد السفينة أن يحمله معه، ففعل، فسأله الرجل من أنت؟ قال: البغوي، قال: المفسر؟ قال: نعم، فسأله عن وجهته، فقال له الرجل: ماذا قلت في تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (سورة الفاتحة: ٥)؟ فقال الإمام: قلت فيها كذا وكذا، ثم انتبه، فالسؤال لم يكن على عواهنه، بل لتوضيح أن سفر الإمام وارتحاله لهذا الغرض لا يتناسب مع علمه وتوكله ومعرفته بهذه الآية، فطلب الإمام من قائد السفينة أن يرجع. ويذكرون أنه ما مكث إلا أيامًا حتى جاءه رسول الرجل الغني يقول له إن فلانًا قد سمع بكتابك وهو يريد طبعه، فأخذه ووزنه ذهبًا وأعطى الذهب للإمام البغوي وطبع الكتاب.

آية واحدة اكتفى بها هؤلاء الأفاضل وهي تكفينا بإذن الله. فإذا انضافت الآية إلى الآية، ازددنا إيمانًا على إيماننا وقلنا: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ (سورة طه: ٨٤).

★ غداً عند الله تجتمع الخصوم:

سيعلم الظالمون حظ من نقصوا، إن الظالم ينتظر العقوبة وإن المظلوم ينتظر النصر قال تعالى: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ (سورة الإسراء: ٣٣).

غدًا يقتص للمظلوم من الظالم، وتحيط بالظالم المظالم، وليس لمن لا يرحمه الإله من عاصم قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾

(سورة الفرقان: ٢٧-٢٩).

غدًا يقتص ربنا من الشاة القرناء للشاة الجماء، ثم يقول: كوني ترابًا، فيومئذ يتمنى الكافر أن لو كان ترابًا،

ولا يظلم ربك أحدًا، فهل يضيع حق صاحب يس؟ وهل لا يقتص ولا ينتقم له ممن قتله؟!

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٤٧).

بل يحبس المؤمنين على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (سورة آل عمران: ٣٠)، وقال سبحانه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (سورة الإسراء: ١٣-١٤).

يوم عظيم يقال للإنسان فيه: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا وبالكرام الكاتبين شهودًا وتستنطق فيه الجوارح،

فيقول الإنسان لأعضائه: بعدًا لكن وسحقًا فعنكن كنت أدافع، فلا نجاة إلا لمن رد الحقوق لأصحابها، وإن لربك عليك حقًا ولنفسك عليك حقًا ولأهلك عليك حقًا فأعط لكل ذي حق حقه، وتوبوا إلى الله توبة نصوحًا لعلكم تفلحون، توبة تندمون بها على ما مضى وتعزمون على عدم العودة فيه مرة أخرى، تندمون بالقلب وتستغفرون باللسان وتقلعون بالجوارح، ومن كانت لأخيه عنده مظلمة من مال فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات.

احذروا الظلم على أنفسكم، فالظلم ظلمات، ومن أجل ذلك حرمه الله على نفسه وجعله محرمًا بين العباد فلا تظالموا قال تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (سورة فصلت:٤٦).

إن الويل غدًا لمن أتى ربه كفارًا أثيمًا وملحدًا لئيمًا، الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار، كما قال سعيد بن جبير للحجاج بن يوسف الثقفي.

بل قد يأتي العبد بصلاة وصيام وزكاة وحج ويأتي وقد

سفك دم هذا وقذف هذا وسلب مال هذا وشتم هذا فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته حتى إذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم ألقي في النار، وهذا هو المفلس بحق من هذه الأمة.

والمظلمة إذا كانت بين العبد وربه فهي إلى العفو أقرب، أما بين العباد فلابد من القصاص إلا أن يعفو العبد عن حقه، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (سورة المجادلة:٦)، كيف ينجو من عذاب الله غداً من قتل صاحب يس والمرسلين الثلاثة من قبل، وكفر بخالق الأرض والسماوات؟! يا حسرة على العباد وعلى كل من أضاع آخرته بدنيا لا بقاء لها ولا وفاء.

بكى عمر بن عبد العزيز ليلة فأطال البكاء فسئل عن بكائه، فقال: ذكرت مصير القوم بين يدي الله ﴿**فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**﴾ (سورة الشورى:٧).

وقال عبد الملك بن مروان ـ رحمه الله ـ: وددت أني

عبد لرجل من تهامة أرعى غنيمات في جبالها وأني لم ألِ من هذا الأمر شيئًا.

وأمر هارون الرشيد ـ رحمه الله ـ: بحفر قبره ثم حمل إليه فاطلع فيه فبكى حتى رحم، ثم قال: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه.

قال أحد الحكام لمالك بن دينار: ادع الله لي، فقال: ألف مظلوم بالباب يدعون عليك، أفيستجاب لواحد ولا يستجاب لألف؟!.

ستنطق الأعضاء بالخصال وتظهر القبائح ويخسر العاصي ويربح الطائع ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة مريم ٣٨).

يوم عظيم يجتمع فيه عثمان ﷺ مع قاتليه وعلي ﷺ مع ابن ملجم الخارجي والإمام أحمد مع المأمون، وسعيد بن جبير مع الحجاج، وعند الله تجتمع الخصوم، يُقتص فيه للحجاج كما يُقتص منه.

لقد أشفق عمر على نفسه من أن تتعثر شاة بوادي

الفرات فيُسئل عنها لِمَ لم يمهد لها الطريق، ورفض تولية ابنه من بعده، فلا تكثر خصومك ورد الحقوق لأصحابها من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، يوم تمور السماء مورًا وتسير الجبال سيرًا، واحذر أن تكون خصومتك مع رسول الله ﷺ، فيقول فيك عندما ترد حوضه الشريف فيذاد بك جهة الشمال لانحرافك عن شريعته وهديه: سحقًا سحقًا لمن بدل بعدي.

★ ما أهون الخلق على الله إن هم عصوه:

عن جبير بن نفير: «لما فتحت قبرص فُرِّقَ بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، فقال: ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله إذا أضاعوا أمره بينما هي أمة قاهرة ظاهرة، لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى».

وقال عمر رضي الله عنه: **«توشك القرى أن تخرب وهي عامرة»**، قيل: وكيف تخرب وهي عامرة، قال: **«إذا علا فجارها أبرارها، وساد القبيلة منافقوها»**.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: «**أقلوا الذنوب؛ فإنكم لن تلقوا الله بشيء أفضل من قلة الذنوب**».

وكان بعضهم يقول: «رأيت المعاصي نذالة فتركتها مروءة فاستحالت ديانة».

وقال الحسن: «هانوا على الله فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم». وقال الفضيل: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني».

فاحذروا الذنوب دقها وجلها، واعلم أن أعظم الذنب والظلم أن تجعل لله ندًا وهو خلقك، ولزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم، وكان ابن عباس رضي الله عنهما ينظر إلى الكعبة ويقول: إن الله عظمك وشرفك وكرمك وإن المؤمن أعظم حرمة عند الله منك.

فعظموا حرمات الله وشعائر الله قال تعالى: ﴿**وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ (سورة الحج: ٣٢).

قال الحسن: عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إيمانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنًا.

ولقد توجه الخطاب لرسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة الأنعام:١٥)، فكيف تكون حالة من هو دونه إذا كفر بالله، ولذلك لا عجب أن هان أصحاب القرية على ربهم بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله وقتلهم المرسلين وصاحب يس دون وجه حق.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (سورة يس:٢٨-٢٩).

فيا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به، واحذروا طريق قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل، فلا تصدوا عن سبيل الله تبغونها عوجًا، ولا تنفروا من طاعة الله، فمن زرع خيرًا حصد الكرامة، ومن زرع شرًا لم يحصد إلا الندامة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصلت:٤٦)، ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾

(سورة طه:١٢٣-١٢٤).

ولا تنسوا ما نزل بساحة غيركم من المثلات عندما كفرو بربهم، ولم يشكروا نعمه، فقد صاروا عبرة للمعتبرين، ومثلاً سائرًا للمتدبرين.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ (سورة سبأ: ١٥-١٧).

يا قومنا: أكفاركم خير من أولئكم، اللهم يا ولي الإسلام وأهله مسكنا الإسلام حتى نلقاك عليه، واجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أعمارنا أواخرها، وخير أيامنا يوم نلقاك.

★ حكمة الابتلاء:

إن الابتلاء الذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن أربعة أقسام:

١ ـ ابتلاء في نفسه.

٢ ـ ابتلاء في ماله.

٣ ـ ابتلاء في عرضه.

٤ ـ ابتلاء في أهله ومن يحب.

وأشد هذه الأقسام هو المصيبة في النفس.

ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون، وغاية المؤمن أن يستشهد في الله، وتلك أشرف الموتات وأسهلها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، والفرار من مواطن القتل لا يطول به العمر، ولذلك قال سبحانه: ﴿ **قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ (سورة الأحزاب: ١٦).

وقد ترتب على مخالطة صاحب يس لأهل القرية أذى له، وهذا ألم يسير يعقبه لذة عظيمة دائمة وهي أولى بالاحتمال من لذة يسيرة يعقبها ألم عظيم دائم، فلابد من حصول الألم والمحنة لكل نفس آمنت أو كفرت، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء، ثم تكون له عاقبة الدنيا والآخرة، والكافر والمنافق والفاجر تحصل له اللذة

والنعيم ابتداءً ثم يصير إلى الألم الدائم، فهي لذة ساعة وألم دهر، وبالتالي فلا يطمع أحد أن يخلص من المحنة والألم البتة.

■ إن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم، وقهرهم، وكسرهم لهم أحيانًا فيه حكمة عظيمة لا يعلمها على التفصيل إلا الله عزَّ وجلَّ، فمنها:

١ ـ استخراج عبوديتهم وذلهم لله وانكسارهم له، وافتقارهم إليه وسؤاله نصرهم على أعدائهم، فإذا غلبوا تضرعوا إلى ربهم وأنابوا إليه وخضعوا له وانكسروا له وتابوا إليه وإذا غلبوا أقاموا دينه وشعائره وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وجاهدوا عدوه ونصروا أولياءه.

٢ ـ تمييز من يريد الله ورسوله ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه.

٣ ـ أنه سبحانه وتعالى يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء وفي حالة العافية والبلاء، وفي حالة إدالتهم والإدالة عليهم، فتلك المحن والبلايا

شرط في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه.

٤ ـ إن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يمحصهم ويخلصهم ويهذبهم، ولقد بين سبحانه أنه إنما خلق السموات والأرض وخلق الموت والحياة وزين الأرض بما عليها لابتلاء عباده وامتحانهم، وليعلم من يريده ويريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها.

قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٣٥)، وقال سبحانه: ﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (سورة العنكبوت: ١-٣).

فالرخاء والشدة والبلاء والعافية، امتحان منه، ليرى صدقك وصبرك، هل أنت صادق في مجيئك إليه، وإقبالك عليه، فتصبر على البلاء، فتكون لك العاقبة، أم أنت كاذب فترجع على عقبك فاستقم في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك.

وفي الحديث: «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم،

يصبح الرجل مؤمنًا، ويمسى كافراً، ويمسى كافراً ويصبح مؤمنًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا» (رواه مسلم).

كان عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول: تقوى الله خلف من كل شيء وليس من تقوى الله خلف، واعلم أن الدنيا بأسرها لا تصلح عوضًا عن معنى من معاني الآخرة، وأن غمسة في جنات النعيم ستذهب عنك آلام الدنيا وكدرها.

فاللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا إلى النار مصيرنا واجعل الجنة هي دارنا ولا تسلط علينا بذنوبك من لا يخافك فينا ولا يرحمنا إنك ولي ذلك والقادر عليه.

★ آفة النسيان:

هناك نسيان معفو عنه، هو من عوارض الأهلية، ولكل صورة منه حكمها في الشرع كالأكل والشرب نسيانًا أثناء الصيام، ونسيان ركعة أثناء الصلاة وما شابه ذلك من صور النسيان مما لا إثم فيه لقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ (سورة البقرة: ٢٨٦)، قال: قد فعلت.

وهناك نسيان آخر، هو بمثابة داء وآفة من أخطر الآفات، إذا حل بقلب إنسان آل أمره إلى العطب والهلاك، وسيطرت عليه شياطين الإنس والجن، قال تعالى: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ (سورة المجادلة: ١٩). ومثل هذا في الناس لا تراه إلا غافلاً، لاهيًا، غارقًا في الضلال والفساد منصرفًا عن معالي الأمور، منشغلاً بدناياها وهذا النسيان متفاوت وقد يصل الإنسان في نسيانه إلى أن ينسى ربه عزَّ وجلَّ الذي خلقه ورزقه، فتكون النتيجة أن ينسى نفسه فيرى الخير شرًا والنفع ضررًا ويرى الظلم عدلاً والقسوة رحمة، وهذا وصف من عناهم الله بقوله: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (سورة التوبة: ٦٧)، وقال سبحانه: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (سورة الحشر: ١٩).

وقد ينسون أمر الله وشرعه وحكمه ويتركون دين الله وراءهم ظهريًا ويستبدلونه بنظم وضعية وقوانين طاغوتية

كفرية قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (سورة طه: ١٢٤-١٢٥).

وقد ينسى الآخرة وما فيها من بعث وحشر وحساب وجنة ونار قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (سورة ص: ٢٦).

وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ (سورة الجاثية: ٣٤).

وقد ينسى الإنسان من أي شيء خُلق وكيف خُلق كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة يس: ٧٨-٧٩).

إن الغافل من الناس قد يجحد ربه ويكفر به وينكر عالم الآخرة بكل ما فيه ويستهزىء بآيات الله عزَّ وجلَّ، ويكذب الرسل فيما جاءوا به من الهدى والنور، وهذا شأن

أصحاب القرية خسروا الدنيا والآخرة، وهذا هو الخسران المبين، فقد خرجوا من الدنيا بأسوأ ذكر.

﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (سورة يس:٢٩)، وأتبعوا بحسرات: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ (سورة يس:٣٠)، ثم هم يوم القيامة من المحضرين في العذاب.

إن الميت بحق، هو الذي يُعرض عن ذكر ربه وينسى أمر الله. وفي الحديث: **«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»** (رواه البخاري).

ومن الغريب أن يذكر الإنسان أولاده وطعامه وأهله وماله، بل قد يطعم المسكين ويعين على نوائب الحق، وينسى من فطره وخلقه ومن لا قيام لنفسه إلا به ولا غنى عنه طرفة عين كحالة ابن جدعان لما سُئل عنه رسول الله ﷺ وهل ينتفع بذلك فقال: إنه لم يقل يومًا، «رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

والنسيان الذي ينتاب الأفراد، يحدث مثله في حياة الأمم والجماعات، ولذلك قص علينا سبحانه من

أخبارهم، تذكرة لأولي الألباب، وعبرة للمعتبرين، وإيقاظًا لنا من غفلة ونسيان مريب. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة يوسف: ١١١).

★ الضار النافع (جلَّ وعلا):

في قول صاحب يس لأهل القرية: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ (سورة يس: ٢٣)، إشارة إلى ضعف وعجز وفقر الآلهة الباطلة التي عُبدت من دون الله، وأن الله تعالى هو الضار النافع، بيده الأمر كله وإليه يُرجع الأمر كله، فلا تنبغي العبادة إلا له سبحانه وتعالى، وهذا يدل دلالة واضحة على تمكن معاني التوحيد من نفس صاحب يس، وامتلاء قلبه من محبة الله والتعلق به سبحانه في جلب النفع ودفع الضر.

ولاشك أن معرفة العبد بأسماء الله وصفاته، وأن كلها أسماء جلال ونعوت جلال، من شأنها أن تدفع العبد إلى كل خير وتزجره عن كل شر.

وقد ذكر الإمام الخطابي في اجتماع هذين الاسمين (الضار النافع) أنه وصف لله تعالى بالقدرة على نفع من يشاء وضر من يشاء وذلك أن من لم يكن على النفع والضر قادرًا لم يكن مرجوًا ولا مُتخوفًا.

وقال الحليمي: الضار هو القادر على أن ينقص عبده مما جعل له إليه الحاجة، ومعنى النافع أنه السادُّ للخلة أو الزائد على ما إليه الحاجة. وقد يجوز أن يُدعى الله جلَّ ثناؤه باسم النافع وحده ولا يجوز أن يدعى الضار وحده حتى يجمع بين الاسمين كما ذكر في الباسط القابض وقال الصديقي: هذا وصف بالقدرة التامة الشاملة، فهو الذي يصدر عنه النفع والضر فلا خير ولا شر ولا نفع ولا ضر إلا هو صادر عنه منسوب إليه كما أن الوصف بالتوحيد وهو أنه لا يحدث في ملكه شيء إلا بإيجاده وحكمه وقضائه ومشيئته فمن استسلم لحكمه فاز بالنعمة العظمى.

قال الغزالي: هو الذي يصدر عنه النفع والضر والخير والشر، وكل ذلك منسوب إلى الله تعالى إما بواسطة

الملائكة والإنس والجمادات، أو بغير واسطة، فلا تظن أن السم يقتل ويضر بنفسه، أو أن الطعام يشبع وينفع بنفسه، أو أن الملك والإنسان والشيطان أو شيئًا من المخلوقات من فلك أو كوكب أو غيرهما يقدر على خير أو شر أو نفع أو ضر بنفسه، بل كل ذلك أسباب مسخرة لا يصدر عنها إلا ما سُخرت له.

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف النبي ﷺ **فقال لي: «يا غلام - أو يا بني - ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟» قلت: بلى، قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله عزَّ وجلَّ، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خير كثير، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»** (حديث صحيح).

إن قصة صاحب يس ترجمة لهذه الموعظة، وحالة ثبات تدل على إيمان راسخ بأن الله هو المحي المميت، المبدىء المعيد، الخافض الرافع، المعز المذل سبحانه وتعالى:

﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** ﴾ (سورة الأعراف: ١٨٠)[(١)].

الخاتمة

اللَّهم يا معلم إبراهيم الخير علمني ويا مفهم سليمان فهمني.

الفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء حتى عُدَّ ألف بواحد، فانظر إلى فهم ابن عباس وقد سأله عمر: ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (سورة النصر: ١)، وما خص به ابن عباس من فهمه منها: أنها نعي الله سبحانه نبيه إلى نفسه وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر على ذلك، وخفاؤه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنًا.

وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره، ولا يقع

الاستغناء بالنصوص في حقه، وأما في حق صاحب الفهم فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها كما يقول ابن القيم - رحمه الله -.

وقد أثنى سبحانه على نبيه سليمان بالفهم فقال: ﴿ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٩).

وقال علي بن أبي طالب، وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: «**لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه، وما في هذه الصحيفة وكان فيها العقل، وهو الديات وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر**».

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «**والفهم فيما أدلى إليك**»، فالفهم نعمة من الله على عبده ونور يقذفه الله في قلبه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه وفهم أصل معناه. فاسأل الله من فضله، وقل: اللهم يا معلم إبراهيم الخير علمني ويا مفهم سليمان فهمني.

وليكن شأنك الخشوع والتدبر عند تلاوة القرآن، فقد بات جماعة من السلف يتلون آية واحدة يتدبرونها ويرددونها إلى الصباح.

قال تعالى: ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ (سورة النساء: ٨٢) و ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** ﴾ (سورة ص: ٢٩).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية يرددها حتى أصبح» والآية هي: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ** ﴾ (سورة المائدة: ١١٨). (رواه النسائي وابن ماجه).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**لأن أقرأ سورة أرتلها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله**».

وعن مجاهد أنه سئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران والآخر قرأ البقرة وحدها وزمنهما وركوعهما وسجودهما وجلوسهما واحد سواء؟ فقال: الذي قرأ البقرة وحدها أفضل.

وثبت عن ابن مسعود أن رجلاً قال: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال ابن مسعود: «**هكذا هكذا الشعر،**

إن أقوامًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع» (رواه البخاري ومسلم).

قال العلماء: يستحب الترتيل للعجمي الذي لا يفهم معناه، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرًا في القلب، فالترتيل مستحب للتدبر ولغيره.

ولقد كان الإيمان ثم القرآن هو منهج التربية عند سلفنا الصالح ﷺ، يقول جرير ابن عبد الله: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا.

وقال ابن عمر ﷺ: **«كنا نؤتي الإيمان ثم نؤتي القرآن فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يوقف عنده، ولقد رأيت أقوامًا يؤتى أحدهم القرآن فيقرؤه من فاتحته إلى خاتمته ينثره نثر الدقل لا يدري ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يوقف عنده»**.

إن الفرق كبير بيننا وبين من تقدمنا بإحسان فقد تجمع فيهم العلم النافع والعمل الصالح، وكانت الآية الواحدة تكفيهم، أما نحن فقد صار علمنا في واد وعملنا في واد

آخر. وظهر فينا من يجعل للجهل مزية وفضيلة، ومن صار عنده العلم ثقافة بلا رصيد، وما هكذا كان سلفنا الصالح ﷺ أجمعين.

كان سفيان بن عيينة يقول: العلم إن لم ينفعك ضرك، وقال: إن كان نهاري نهار سفيه وليلي ليل جاهل فما أصنع بالعلم الذي كتبت، وقال أبو حازم: رضيَ الناس من العمل بالعلم ومن الفعل بالقول. وقال البعض: ما عرضت قولي على فعلي إلا خشيت أن أكون مكذبًا، وقالوا: كثرة العلم من غير عمل مادة الذنوب، وقال حكيم لرجل يستكثر من العلم: يا هذا إذا أفنيت عمرك في جمع السلاح فمتى تقاتل به، وقيل العلم أسس والعمل بناء والأسس بلا بناء باطل.

إن الخير كله في حسن التأسي والاقتداء بمن تقدمنا بفضل وسبقنا بإحسان، وذلك يتطلب منا متابعة العلم النافع بعمل صالح، وأن نسأل ربنا من فضله أن يرزقنا علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا ودينًا قيمًا وشفاء من كل داء، إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه.



وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

كتبه

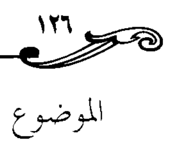
سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



فهرس

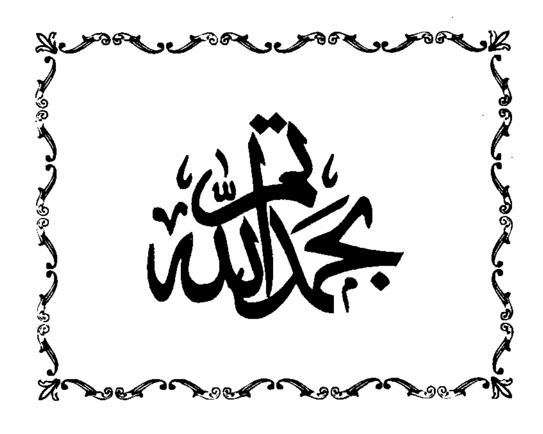
الموضوع الصّفحة



الموضوع الصَّفحة






تم بحمد الله

تطلب مطبوعاتنا من

التوزيع في المملكة العربية السعودية: دار طيبة الخضراء مكة المكرمة ت: ٥٥٨٩٠٢٧

التوزيع في الجزائر: مجمع السيرة للكتاب والشريط الهادف

سطيف: 7 شارع الرخايف - هاتف: 66 48 83 036 - 08 51 06 062

الجزائر: 31 20 21 075 - بسكرة: أمام الضمان الاجتماعي هاتف: 56 05 44 071

التوزيع في اليمـــن: مكتبة الإمام الألباني صنعاء شارع الرباط ـ بجوار جولة القادسية ت: 212281

المكلا مقابل مسجد با زرعة ت: 05/316437 - جوال: 71137438

التوزيع في المغـــرب: مكتبة الرسالة 56 زنقة الإمام القسطلاني حي أبو القاسم . الأحباس . الدار البيضاء هاتف 446664

التوزيع في القاهرة: العربية للتوزيع خلف الجامع الأزهر

شارع الإمام محمد عبده - أول درب الأتراك - ت: ٥١٢٠٦٢١ / ٠٢٠٢٠

